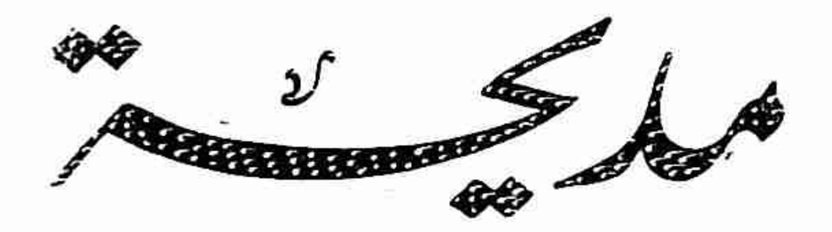
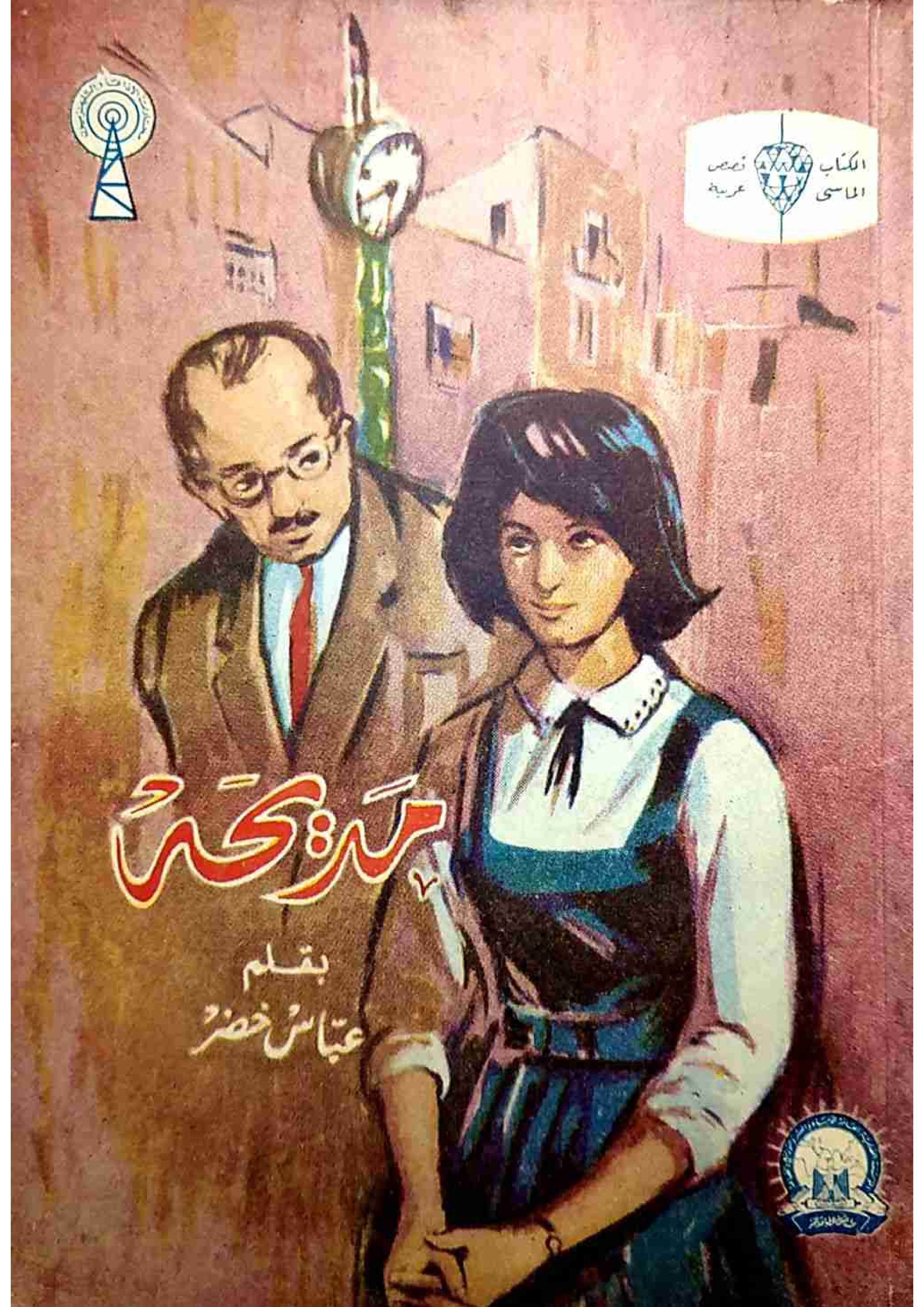
الكتاب الماسي



بقلم
عباس خضر


الكتاب الماسي
قصص عربية
مديحة
بقلم
عباس خضر

مقدمة

عندما أخرجت مجموعتي القصصية الاولى « الست علية » لم يكن عندى ما أقوله فى تقديم لها ، وأنا أوثر أن يقدم العمل الادبى نفسه ما لم يكن هناك ما يدعو الى المقدمة كما أشعر الان بالحاجة الى هذا التقديم .

منذ بدأت الكتابة اتجهت الى النقد الادبى أكثر من أى شىء آخر ، وكنت فى الوقت نفسه أشعر بالدافع الى كتابة القصة القصيرة ، وكنت — أحيانا ونادرا — أستجيب لهذا الدافع ، وكنت أرثى للقصة القصيرة « المكبوتة » فى نفسى ، فقد غلبت دوافع الكتابة النقدية ، وهى دوافع بعضها خارجى يشبه الحديث عنه الاعترافات .. وليس هذا مجال الاعتراف ، ولكنى لا أرى بأسا بالاشارة الى الدافع الاول ..

فى النشأة كتبت القصة بدافع داخلى ، فلم يلتفت الى أحد ، لعدم النضج أولا ، ولقلة الاهتمام بأدب القصة فى ذلك الوقت ثانيا . ثم كتبت نقدا بدافع داخلى أيضا ، فاسترعيت الانظار ووجدت نفسى موضع اهتمام الادباء من كبار وصغار .. وكنت فى المرحلة التى يشعر فيها الشاب بضرورة اثبات شخصيته ، وانضم هذا الدافع الخارجى الى الدافع الداخلى وانسقت فى كتابة النقد ، وعاشت « قصتى » فى كبت .. لا تجد لها متنفسا الا فى النادر .

على أنه من الحق الذى أدين به — سواء فى القصة أو فى النقد الأدبى — أن الأدب كله نقد .. والخلاف الوحيد أن الادب المبتدع من قصة أو شعر نقد للحياة ، وأن النقد الادبى نقد للأدب المبتدع ، أى نقد لنقد الحياة .

واستمرت الكتابة النقدية والدراسية غالبة على ، حتى السنوات التى أعقبت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولعل الثورة العامة أعدت نوازع القصة فى

نفسى فثارت •• ثارت على مطالب العيش التى تدعو الى الكتابة الصحفية فى الموضوعات الأدبية من نقد وغيره ، تلك الكتابة التى عرفت بها وصـــارت بضاعة تطلب منى •

ثارت نوازع القصـــة ، وحكمت بالتقشف وضرورة تكافؤ الفرص على الاقل بين النقد والقصة • وكتبت مجموعة « الست علية » وأوشـك ظهورها أن يكون نقطة تحول فى حياتى الادبية • فقد تناولها النقاد تناولا بعث فى نفسى شعورا جديدا نحو النقد الادبى •• وهالنى من أكثر ماكتب عنها أنه كلام خاطف •• لايعنى صاحبه الا أن يقول شيئا والســـلام •• يريد أن يهاجمنى •• يريد أن يجاملنى •• يريد أن يثبت شـــخصيته ويعوض اخفاقه فى الادب المبتدع •• يجامل شخصا تخيل أنى أنافسه •• وكانت الظاهرة المشتركة بين الجميع هى ما سماه الدكتور طه حســـين بالخطف •• وهو أن يكســـل الكاتب عن استيعاب مايقرؤه ويتفهمه ، بل يمر به سريعا ويخطف منه ما يقع عليه بصره ، ثم يعلق وينقد ••

حتى الذين جاملونى •• مدحونى بغير حق عن طريق ذلك الخطف!

ناقد واحد هو الذى أخلص فى دراسة الكتاب وجد فى نقده ، ليس من نقادنا البارزين وان كنت أرجو له ما يستحقه من التقدير ، وهو الاســـتاذ علاء الدين وحيد ، فقد استحق احترامى بما كتبه عن المجموعة فى مجلة « الادب » •• سرنى حقا تنويهه ببعض الجوانب ، كأى انسان يسره التنويه ويلقى ثناء على عمله ، ولكن اخلاصه فى النقد واستيفاءه للموضوع ، بما فى هذا من مآخذ ووجهات نظر مخالفة ـ جعلنى أشعر باحترامه وتقديره وان لم أكن قد قرأت له قبل ذلك ، ولم أعرفه شخصيا حتى الآن ••

وهذا الناقد غير البارز ، ومن أعرفهم من الناشئين والذين لا يجدون الآن مجالا لكتاباتهم ، يبشرون بمستقبل للنقد الأدبى غير الحاضر المؤسف الذى نعيش فيه الان ، هذا الحاضر الذى نرى فيه النقاد يوجهون فيه كل طاقاتهم الى التسابق والتفاخر •• أيهم يعرف « ت • س • اليوت » أكثر من غيره ! ويهملون تناول انتاجنا الأدبى الذى يظهر تباعا بكميات وافرة ، وفيه الجيد الذى يسترعى الانتباه ، فان تناولوا منه شيئا فكتاب ينوهون به

الصديق يرد التحية بأحسن منها أو بمثلها على الاقل ، أو لمؤلف آخر ينفع أى نفع ..

نعود - بعد هذا الاستطراد - الى وقع ما كتبه النقاد عن مجموعتى الاولى فى نفسى ، تصورت أنى أحدهم وان المؤلف شخص آخر .. خجلت ! كيف آخذ الامر بهذه السهولة ؟ مؤلف كد وجد وعصر نفسه على الورق .. أجىء أنا بمنتهى البساطة فأصفعه بحكم خاطف أو أحييه بكلمة جوفاء .. ؟!

يالله ! هل كنت أفعل هذا .. ؟ انه شىء شنيع .. عيب !

أحجمت بعض الشىء عن كتابة النقد ، والقليل الذى كتبته .. كتبته كما أريد أن يكون النقد ، فوجدت نفسى « نشازا » وأحسست من تأثير النقد فى علاقاتى بالمؤلفين الذين تناولت كتبهم أنهم يستنكرون منى هذه « القنزحة » فى جو كله تنويه ومجاملات .. وهم معذورون لانهم يعيشون فى هذا الجو .

والله وحده هو الذى يعلم .. هل أكتب النقد الأدبى بعد ذلك ..؟

ووجهت همى فى الفترة الأخيرة الى كتابة القصة القصيرة ، الفن الأول الحبيب الى نفسى ، فكان هذا المحصول الذى أقدمه بين يديك .

وقد التزمت فى هذه القصص كما فى سابقتها - أو وجدتنى ملتزما - أن أقول للقارىء « شيئا » من خلال ما أصور ، وعنيت بالواقع الاجتماعى، وبالتعبير عن اهتمامات الناس فى عصرنا كما تبدو فى فكرى ووجدانى .

لم أرسم لهذه القصص خطة ، ولم أضع لها أهدافا مفروضة ، وانما جريت على ما قلت فى بعض كتاباتى :

« ينبغى أن يكون للاديب هدف بنائى ووجهة نظر فى مصلحة مواطنيه ومصلحة الانسانية . ولا أقصد أن يلزم الاديب بالهدف من خارج نفسه ، انما هو مواطن كأى مواطن صالح يعمل فى خدمة الجماعة وتدخل الاغراض الجماعية فى وجدانه ومشاعره ، فيعبر عنها من داخل نفسه

تعبيرا حرا صادقا لا فرض فيه ولا تقييد ، ولا شك أننا نحب المواطن الذى يخدم مجتمعه بمختلف الوسائل كتوظيف ماله فى المؤسسات الاقتصادية النافعة وبذل مايملك من جهد ونفوذ فى خدمة الآخرين ، وكذلك نحب الأديب الذى يوظف أدبه فى خدمة المجتمع وينفع به الناس على أى وجه من وجوه النفع • ولا أرى الاديب الذى يستعمل حريته فى العزلة عن المجتمع الا كالفرد الانانى الذى يستعمل حريته فى أن يكون سلبيا لا ينفع أحدا ، وكالجندى الذى يستعمل حريته فى التخلف عن الدفاع ، وكالجاهل الذى يستعمل حريته فى الامتناع عن التعلم والتثقف • ثم أليس الاديب الفردى مستعبدا للقوى الفردية فى نفسه ؟ ولماذا لا يكافح هذه القوى ويتحرر منها ان كان حقا يطلب الحرية ؟ وأعتقد أن هناك من يعبر بالنداء بحرية الاديب عن كراهيته لبواعث الحياة الجديدة ودواعى التقدم التى يتوهمها خطرا على ذاته المتقوقعة •• ولو أنصف هؤلاء أنفسهم لخلصوها من استعباد القوى الرجعية الكامنة فيها » •

والكاتب الموهوب المتمرس هو الذى يستطيع أن يؤدى أغراضه الاجتماعية والانسانية من خلال تصويره للاحداث والمواقف ورسم الشخصيات والحوار الطبيعى •• وما يقتضيه ذلك من أصول فنية ، فلا يشعر القارىء أن الكاتب يواجهه مواجهة صريحة •

وليس هذا مطلبا سهلا ، اذ يحتاج مع الموهبة الفطرية الى ثقافة أدبية تبصر بالاصول الفنية وتكسب القدرة على التعبير والتصوير ، والى ثقافة اجتماعية تأتى من تجارب الحياة وحسن الاستفادة منها ، والى شىء ثالث لايقل أهمية عن سابقيه ، وهو الانطباع على القيم الانسانية السديدة •

ولا أزعم أن ذلك كله قد توافر لى ، ولا أنى بلغت المستوى المنشود ، انما اجتهدت ، وهذه هى ثمرة اجتهادى ، تقدم اليك فى طبق •• هو هذا الكتاب • فان لم يطب لك مذاقه فليس أول شىء ولا آخرشىء تأسف على شرائه ••

عباس خضر


مديحة

مديحة

أرسل الاستاذ عبد العزيز فى احضار « تكس » من الموقف ، ووقف يستعجل ابنته :

ـ يا لله يامديحة ياحبيبتى •• التكس له زمان جاى •

لم يكن متعودا أن يناديها « ياحبيبتى » كما تفعل أمها ، لولا أنها الآن ضعيفة من أثر حمى « البراتيفود » التى أصابت المسكينة أخيرا ولم تتركها الا منهوكة القوى على باب الامتحان • وهذا هو أول أيام امتحان الشهادة الثانوية العامة ، وعليها أن تؤديه فى هذه النقاهة !

أجابت مديحة فى صوت رقيق ضعيف :

ـ حاضر يابابا •

كانت هادئة •• انها حقا لم تتمكن من مراجعة مواد الدراسة فى الفترة الاخيرة كما كانت تريد ، ولكنها كانت مجدة طول العام ومعلوماتها الثابتة تمنحها شيئا من الثبات والاطمئنان • ولكن هذا لم يكن كل شىء فى هدوئها •• فهناك هدوء الضعف الذى لايقوى حتى على الاضطراب ••

نظر الاستاذ عبد العزيز فى ساعته فوجدها تشير الى الثامنة الا عشر دقائق •

ـ انت متأكدة يامديحة ان الامتحان يبدأ تمانية ونص ؟

ـ أظن كده يابابا ••

ـ والله أنا خايف يكون الميعاد تمانية •• وعلى كل حال التكس أهو جه •• يالله بقى •• استندى على يامديحة •

كان سائق التكس بادى المرح والنشاط ، خفيف الحركة برغم تقدم

سنه . ألقى نظرة الى الطالبة المريضـــة ورأى فى يدها بعض الكتب والأدوات ، وداخله الاشفاق .. لا عليها فقط .. بل كذلك على والدهـا (لابد أنه والدها) الواجم القلق .

ـ ان شاء الله ناجحة ، النهار دا كله خير .. أنا وصلت بنت للجنة الجيزة و ... قاطعه الاستاذ عبد العزيز :

ـ تعرفش ميعاد الامتحان الساعة كام يا أسطى ؟ .

تمانية .. كانت البنت اللى وصلتها مرتبكة خائفة من الامتحان ..

ـ تمانية ! بتقول تمانية !

ـ أظن كده ياأستاذ .. مش متأكد ..

وهم الاستاذ عبد العزيز أن ينفجر فى السائق ويقول له « وبتقول ان النهار دا كله خير ! وناجحة كمان .. طيب ، واذا لم يسمح لهـــا بالدخول بعد الميعاد تنجح ازاى ؟ »

ولكنه ضبط نفسه حتى لايزعج ابنتـــه ، واكتفى بأن يطلب من السائق أن يسرع .. ونظر فى ساعته مرتين دون أن يمضى بينهما وقت .. والسائق يلمحه فى المرآة ..

ـ اطمئن ياأستاذ ! ان شاء الله كله خير .. تصور سيادتك ان كل اللى قابلتهم النهارده ربنا سهل لهم أمورهم ، التلميذة اللى قلت لسيادتك انى وصلتها ...

ـ لكن دى راحت فى الميعاد كويس .. راحت الساعة كام ؟ .

ـ كانت سبعة ونص ، كله كويس ان شاء الله . تصور سيادتك انها

وأراد الاستاذ عبد العزيز أن ينبه السائق الى ضرورة السرعة حتى يمسك عن الكلام ، اذ خيل له أن حديثه يشغله عن الاسراع ، ولـــكن

السيارة وقفت عند اشارة المرور .. لعنة الله على هذا الضوء الاحمر .. لو تقدمنا قليلا قبل ان يبدأ ! .

وترك السائق يكمل كلامه .

ـ البنت ركبت وطلبت منى أن أوصلها للجنة الجيزة .. هى فين لجنة الجيزة ؟ ما أعرفش .. سألت عنها .. نهايته وصلنا ، البنت ارتبكت لانها نسيت كيس النقود ، شفت الدموع بتطل من عينهـا .. قلت لهـا ماتزعليش .. خدى فلوس يمكن تحبى تشربى حاجة ولا تأكلى سندوتش .. حاكم بنتى قدها ودموعها بتأثر فى .. قالت ماليش نفس .. وكتبت لى ورقة عشان أروح بيها بيتهم وآخذ أجرة التكس . وفتحت لى الباب ست طيبة .. أمها .. وأعطتنى ١٢ قرش .

ـ لازم اطمأنت لان بنتها وصلت فى الميعاد المناسب ..

ولاحظ الاستاذ عبد العزيز علامات القلق بادية على وجه ابنتـه مديحة ، وقد ازداد شحوبها ، وتراخى جسـدها النحيـف على مقعد السيارة . انه يعلم أن منتهى أملها أن تدخل الجامعة فى هذا العام . أراد ابن عمتها أن يخطبها ويشبكها ، على أن تكتفى بالثانوية العـامة ، فأبت وثارت على أمها لما ألحت عليها ..

ـ على كل حال السـاعة لسه ماحصلتش تمانية واحنـا قربنا من المدرسة ، ويمكن يكون الميعاد تمانية ونص ..

أراد الوالد بذلك أن يعيد السكينة والطمأنينة الى ابنتـه وهى فى طريقها الى الامتحان ، وأوحشه صمتها فقال ليسمع صوتها :

ـ مش كده يامديحة :

ـ زى ما تيجى يابابا ربنا يستر ..

وكان السائق قد صمت برهة ، شعر الاستاذ عبد العزيز بالحـاجة الى حديثه ، انه رجل لطيف لبق وكلامه يبدد ضباب اليـأس ويبعث التفاؤل . وتعجب الاستاذ عبد العزيز .. اذ كان منذ لحظة يستثقل كلام

السائق ويقول فى نفسه : أعوذ بالله •• هل أصله حلاق : لكن حلاقى هذا الجيل لايثرثرون ، تطور •• فهل انتقلت الثرثرة الى السواقين ؟ •

وكذلك مديحة •• استراحت الى حديث السائق المتفائل وودت لو يسترسل •• يقول ان له بنتا فى مثل سن البنت التى وصلها الى اللجنة ، آه ••هذه البنت وصلت قبل الميعاد •• يابختها ! لكنه لم يقل لنا أين بنته ، هل هى فى المدرسة ؟ وهل هى فى الثانوية العامة ؟ هل تسـأله ؟ وقالت بعد تردد قصير وبصوت ضعيف تمده نحو السائق :

ـ وبنت حضرتك •• راحت اللجنة ؟ •

ـ لا ياآنسة •• هى نجحت فى امتحان النقل للسنة الثالثة •• وهى فى القسم العلمى •• عايزة تخش كلية العلوم ، أنا كنت عايز أوديهـا الطب ، صحيح الطب مدته طويلة وبيتكلف ، لكن ربنا يقدرنا ••

قال الاستاذ عبد العزيز :

ـ أحسن خليها زى ما هى عايزة •

وشعرت مديحة بحبها لابيها واعجابها بعصريته ، ونظرت الى وجهه وتخيلت أنها تقبله ••صحيح ليس الأمر بالسن •• أين صلاح ابن عمتها الشاب الجامد •• من أبيها هذا العصرى المستنير ؟ ••

ولمح السائق فى المرآة الاستاذ عبد العزيز ينظر الى ساعته ، فقال قبل ان يعود الى الرجل اكتئابه بعد أن تبسط وانحلت عقدة وجهه :

ان شاء الله كله خير •• أنا النهاردة كل اللى قابلتهم ربنا سهل لهـم ووصلوا فى مواعيدهم قبل ما أوصل التلميذة لجنة الامتحان ركبت واحدة دكتورة فى مستشفى بطنطا •• أهو أنا كنت عايز سناء بنتى تطلع زى الدكتورة دى • صحيح بتتعب وعندها أمر تكليف بالشغل سنتين فى طنطا وبتروح وترجع كل اسبوع ، لكن معلهش تتعب فى الاول وتخدمالوطن وبعدين تستقر •• لكن زى سيادتك ما قلت •• خل سـنـاء زى ما هى عاوزة •

واستطاع هذا الحديث أن ينقل خواطر مديحة من جـــو القلق والتوتر بسبب احتمال التأخير وعدم دخول الامتحان الى جو الامانى فى المستقبل .. انها ميالة الى دراسة الطب ، ولن تعبأ بمثل ما قاله لهـــا مرة صلاح من أنها ستمكث فى الطب مدة قد تطول الى سبع سنوات أو أكثر يضعف فيها بصرها وتلبس نظارة ذات حجرين ســـميكين .. ثم تقضى سنتين فى الأرياف بين الفلاحين والذباب والبعوض .. لا ، هذا تصوير سخيف للموضوع ، فاذا كان كل خريجى وخريجات الطب ســـيقضون فى الريف سنتين فهل يبقى فيه ذباب وبعوض ؟ والفلاحون .. مالهم ؟! وهل سيظلون منعزلين مهملين ؟ لا ، تلك أفكار سخيفة .

كانت هذه الخواطر تمر كالبرق فى ذهن مديحة ، على حين استأنف السائق حديثه قائلا :

ـ نهايته .. الدكتورة كانت فى أول شارع شـبرا ، قالت لى من فضلك ياأسطى أنا عايزة الحق قطر سبعه وفاضل عشر دقايق بس .. واتكلمت عن العيانين فى المستشفى والميعاد .. الى آخره . وعنها وطيران وحصلت القطر .. بس يعنى حصلت حاجة كده ضايقتنى .. ما كنش معاى فكه عشان أرجع لها بقية العشرة صاغ ، فقالت وهى تسرع الى داخل المحطة : خليهم عشانك .

ـ وايه اللى ضايقك فى كده ؟ .

ـ قلت فى نفسى يمكن تفتكر انى بانكر الفكه عشان آخد الباقى . صحيح فيه سواقين بيعملوها .. لكن مش كل صوابعك زى بعضها ..

ـ لا .. بسيطة ! .

وفجأة تغير الجو .. جو التكس الذى كان قد صـــفا بعض الشىء بسبب حديث السائق المتفائل والتبسط معه .. فقد وصـــلوا الى مقر الامتحان ، ولاحظت مديحة ، كما لاحظ والدها ، أن الشارع أمام المدرسة ومدخلها وفناءها خالية تماما من الطالبات ، بل يسودها سكون رهيب ..

وزاد من الرهبة ما أرتسم على وجه البواب من تطلع واشفاق حينما لمح مديحة تنزل من التكس مستندة الى ذراع أبيها ..

ـ الامتحان بدأ ياريس ؟ .

أجاب البواب وهو يحاول أن يخفف من الأمر :

ـ أيوه .. الجرس ضرب من شويه .

ـ الله .. مش الميعاد تمانية ونص .. ؟

ـ لا ، تمانية .. لكن معلهش .. رئيس اللجنة راجل طيب .

أشار الاستاذ عبد العزيز الى السائق أن يظل واقفا ولا ينصرف ، وصعد بابنته بضع درجات انتهت بهما الى مدخل قاعة الامتحان ، وأفلتت مديحة من يده تريد الدخول وهى تستمد من نفسها قوة .. ما لبثت أن تبددت حينما قال لها رجل واقف هناك : « خليك هنا » فاستندت الى الحائط .. وتقدم الوالد الى الرجل يشرح له الظروف باختصار .

قبل ذلك بنحو عشر دقائق لاحظت المراقبة فى الامتحان أن طالبة تنظر الى مقعد خال قريب منها وهى فى منتهى القلق ، فسألتها :

ـ مالك .. ؟ .

ـ مديحة يا أبله ماجتش ..

ـ مديحة مين ؟ .

ـ اللى نمرتها هنا .. (وأشارت الى المقعد الخالى وبكت ..) .

ـ معلهش دلوقت تيجى ..

ونظرت المراقبة الى المدخل ، ودق الجرس ، فأسرعت الى توزيع أوراق الاسئلة ، ولما وصلت الى الطالبة وجدتها قد انخرطت فى البكاء .. وتناولت الطالبة ورقة الاسئلة ووضعتها أمامها دون أن تنظر فيها ، وشغلت بالدموع والمنديل ..

وتعلقت نظرات المراقبة بالمدخل .. ولمحت مديحة مستندة الى الحائط ورئيس اللجنة يستمع الى والدها .

ـ الحقونا بمديحة ..

قالت المراقبة ذلك وأخذت بيد مديحة الى الداخل ، ورئيس اللجنة يشير لها بالموافقة .

***

رأى سائق التكس الاستاذ عبد العزيز يهبط درجات المدرسة وهو يقفز من واحدة الى أخرى كأنه يرقص ..

ـ مش قلت لك يا أستاذ .. ان النهارده كله خير ..

وكان السائق وهو يقول هذا واقفا أمام باب المدرسة قريبا من التكس ، فدق عبد العزيز على يده الممدودة مصافحا .. علامة الفرح ، وشعر عبد العزيز أن السائق ليس غريبا عنه ، شعر أنه صديق يعرفه من زمان .. فراح يحدثه بما حدث في الداخل ، وارتفع صوتهما بالضحك وهو يحكى له قول المراقبة « الحقونا بمديحة ! »

قال السائق وهو يدوس بقدمه مفتاح البنزين ويشعر بسرور خفى لان الحاجز الذى كان يحس به بينه وبين الاستاذ عبد العزيز قد ذاب :

ـ ياسلام ياأستاذ ...

ـ عبد العزيز .

ـ ياسلام ياأستاذ عبد العزيز .. بنات حلوين ..

ـ بنات مين ياأسطى ؟ .

ـ بنت حضرتك ، وبنتى ، والتلميذة اللى كانت بتعيط والتلميذة اللى وصلتها للجنة الجيزة ، والدكتورة اللى بتشتغل فى طنطا ، والمراقبة . كلهم حلوين ؟

ـ حلوين ازاى ! .

ـ حلوين .. مش بالزواق وما أشبه .. لا .. حلوين بالمعنى ! .

البلياتشو



البلياتشو

ارتفعت أنغام « البيانولا » فى شارع العتبة الجانبى الضيق ، وارتفع معها صوت « البلياتشو حسين » ـ مع صاجات الطبلة الصغيرة فى يده ـ ملعلعا .. يخرج من حنجرة كأنها مصنفرة :

« باحلم بيك .. أنا باحلم بيك » .

وهو يرفع رأسه الى أعلى ينظر الى النوافذ والشرفات بوجه مطلى بألوان مختلفة .. أبيض جيرى ، وأحمر ، وأصفر ، وألوان أخرى خفيفة كالظلال .

وعلى الفور لمح الوجوه تطل من النوافذ والشرفات ، بعضها عابس محتج ، وبعضها باسم مشرق ، وبعضها يخفى وراءه الارتياح .. يريد أن يتفرج ولا يدفع ! .

أخذ البلياتشو يقفز ويرقص ، ويأتى بحركات مضحكة ، وهو يكمل غناءه المصنفر ناظرا الى فتاة ظهرت فى شرفة :
« بأشواقى أنا مستنيك »

وفى الوقت نفسه ظهر فى شرفة أخرى رجل يتمايل فى روب منزلى وبيده عصا غليظة يستند اليها ، فكرر البلياتشو المقطع الاخير : « بأشواقى أنا مستنيك » . وكان فى هذه المرة صادقا ، فقد اعتاد الرجل ان ينفحه بخمسات القروش ، وهو أهم « زبون » له فى هذا الشارع ، بل وفى غيره ، فهو ينتظر ظهوره حقا بأشواقه .. أشواق البلياتشو . ان مايرميه اليه هو ومن يشبهه من « الزباين السقع » يعوضه عما يلقاه أحيانا من الخيبة والمهانة .. مرة ظل يغنى ويرقص ويلعب .. ويردد الاغنية الوحيدة « بأحلم بيك » وما أن انتهى من مقطعها الاخير الذى لايتجاوزه

« بأشواقى أنا مستنيك » ، حتى هبط على قفاه كف العسكرى الذى ظل طول الوقت يتفرج ويتسلى .. وقاده الى مركز الشرطة هو وصاحبه الذى يدير مفتاح البيانولا ..

جال البلياتشو جولته ، ثم تطلع الى أعلى بنظرات ضارعة وهو يبسط الطبلة الصغيرة كى يتلقى فيها ما يجود به المتفرجـــون والمتفرجات من الشرفات والنوافذ .. وسقطت بعض القروش .. التعريفات والصاغات .. وأشار اليه أحدهم بشىء ملفوف فى ورقة ، فلمعت عيناه بالسرور .. لعله « زبون سقع » آخر يرمى اليه بورقة ذات خمسة قروش وربمـــا عشرة .. فتلقف الورقة وهو يقفز اليها بخفة صائحا فى مرح :

« باحلم بيك .. أنا بحلم بيك » .. وسرعان ما فكها ، واذا هـــو يجد فيها « فص توم » .. نظر الى الشـــاب الذى ألقى الورقة الملفوفة فلمحه يضحك بخبث وانتصار .. شعر بالخيبة والخزى لحظة خاطفة سرعان ما تغلب بعدها على هذا الشعور واستمر فى مرحه ، ونظـــر الى الشاب وهو يقول فى صوت ممطوط :

« اخيه .. مقبول من ريحتك .. حضرتك عامل فص .. ياخواجة تومة ! ...

وبادله الآخر التنكيت على « القافية » ..

ودخل آخرون فى « القافية » وساد الضحك ، واهتزت الاريحيات ، حتى الذين لا يريدون أن يدفعوا .. لم يستطيعوا كتم ضـــحكاتهم ، وأخذت التعريفات والصاغات تتساقط ..

وكان البلياتشو مطمئنا الى كرم الرجل صاحب الروب ، كما عوده ، ورآه يدخل يده فى جيبه ، فتذكر ما حدث فى المرة السابقة عندما رمى اليه بورقة ذات خمسة قروش فطيرها الهواء الى شرفة أخرى مقفلة مـــن الداخل ، وتسلق البلياتشو رفيقه حامل « البيانولا » الطويل الضخم الذى لا يبدو على وجهه أى تعبير فى خلال كل ما يحدث وهو يدير مفتـــاح العزف ، عدا نظرات الاهتمام والاطمئنان عندما تسقط النقود .. قفـــز

البلياتشو فوق صاحبه حتى وقف على كتفيه تحت الشرفة وتعلق بقضبانها الحديدية ، وجهد حتى استطاع الوصول اليها بأصابعه •

تذكر البلياتشو ذلك ، فأشار الى الرجـــل لابس الروب بالشرفة ، ومثل له بيده أن يدعك الورقة ويكورها ••

وأسرع البلياتشو يقفز الى أعلى وقبض على الورقة •• وأدرك من حجمها أنها ورقة كبيرة ، لم يفتح يده وينظر اليها حتى لا يراها أحـــد أو يلمحها رفيقه حامل البيانولا ، بل دسها فى جيبـــه بسرعة ، وراح يدور ويتنطط ويغنى •• باحلم بيك ••

وهاقد تحقق الحلم •• وصار فى جيبه •• ربما جنيه ، وربمـــا أكثر ، لم يذكر أن اجتمع له جنيه فى يوم من الايام ، ان الذى يجمعه فى أحسن الايام حظا لا يزيد على خمسين قرشا يدفع منها لمالك البيانولا ــ الذى يؤجرها له ــ عشرة قروش ، والبـــاقى يقتسمه هو وحامل البيانولا ، وفى يوم النحس لا يكاد يجمع أجرة البيانولا •

**

« ياه •• خمسة جنيه مرة واحدة ! •• » •

وكاد يقول لنفسه : اسكت يا حسين حتى لا يسمعك أحد ••

وكان قد أنهى جولته بسرعة ، وقال لزميله انه تعبان ويريد ان يستريح ، وتخلص منه ، وأزال الطلاء من وجهـــه ، وراح يمشى من شارع الى شارع فى مدينة القاهرة الواسعة ، حتى لمح قهـــوة صغيرة منزوية ، فجلس فيها ، وجعل يتدبر الموقف ويفكر كيف رمى اليـــه الرجل بالورقة ذات الجنيهات الخمسة ••

هل كان الرجل سكران ؟ لقد كان يتمـــايل •• ظن أن الورقة بخمسة قروش ، وربما لم يكن سكران ، ووضع يده فى جيبه فجاءت على هذه الورقة ، فدعكها دون أن يراها ! ولكن •• ألا يمكن •• لا ، هذا غير معقول •• أيمكن أن يكون صاحيا وعارفا انها بخمسة جنيهات ؟!

وهل تساوى أنت فى نظره خمسة جنيهات ؟.. بلياتشو بخمسة جنيهات!!
غير معقول .. البيانولا نعم تساوى ثلاثين أو أربعين جنيها ، لكن أنا ..
لا ..

ولماذا لا يكون قد « تسلطن » وهو سكران فى ســـاعة التجلى ..
فرمى بها فى اندفاع ؟ وعندما يفيق سيتذكر ويندم .. و .. يبحث ..

وتلفت حوله كأنه يخشى أن يعثر عليه .. واستحضر صورته فى
ذهنه كما كان يبدو فى الشرفة ، نحيف طويل أصلع ذو شارب صغير ،
عيناه ضيقتان يظهر فيهما الابتسام أكثر مما يظهر على فمه .

والذى لا شك فيه أنه رجل طيب وكريم ..

ومنع حسين نفسه من الاسترسال فى الخواطر الطيبة التى بدأت
مشاعره تحس بها نحو الرجل ، لانه خشى أن تؤدى به الى فقد المبلغ
.. وتحسس الورقة فى جيبه وأخرجها وهو ينظر حوله ليتيقن أن أحدا
لا يراه ، ونظر اليها وردها وهو يقول فى نفسه : انه رجـــل غنى وأنا
فقير .. أنا محتاج الى هذا المبلغ الذى نزل على من السماء ..

وكان يرتشف الشاى الساخن حينما ترامى الى سمعه حـــديث
رجلين الى جواره عن تاجر مخدرات اعتقل ضمن من اعتقلوا ووضعت
أموالهم تحت الحراسة .

قال أحدهما :

ـ دا بنى عمارتين من الكار ده ..

ـ وبيقولوا كمان ان مراته لابسة صـــيغة ملو ايديها .. ذهب
والماظات ..

ـ أهو كله راح .. أصله حرام ..

ـ لكن يعنى .. كان بيتمتع !..

ـ يتمتع ؟؟ ودلوقتى .. بيتمتع ؟ ياعم سيبك .. هـو فيه أحسن
من الحلال .. كفاية راحة البال ..

ـ لكن راحة البال .. ازاى تيجى مع الفقر ؟

صحيح .. كيف تأتى راحة البال مع الفقر ؟

سأل حسين نفسه هذا السؤال وهو يستمع الى حديث الرجلين ، وتذكر حالته وما يعانى فى سبيل الحصول على اللقمة ، وليته مع ذلك يجد احتراما أو اعتبارا بين الناس .

وتذكر ما قالته له مرة .. البنت « زينب » التى تشتغل « مكوجية » بدل أبيها المريض ، اذ حدجته بنظرة يمتزج فيها الدلال بالكبرياء وقالت له :

« حتى انت يا بلياتشو .. ؟ » .

كان يمزح معها ويراها تبتسم من حركاته وكلامه ، ويفتنه ابتسامها وما يشيعه فى وجهها من اشراق .. حتى تجرأ يوم أن قالت له ذلك ردا على مغازلته لها عندما رآها تختبر حرارة المكواة بأصبعها المبلولة فغمز لها مترنما :

ـ نار يا حبيبى نار ..

نعم أنا بلياتشو .. بلياتشو يسلى الناس ولكنه ليس من الناس !

أبى لم يعلمنى صنعة ولم يلحقنى بمدرسة .. لانه هو أيضا كان بلياتشو ..

وتنبه من خواطره السريعة على صوت أحد الرجلين يقول للآخر :

ـ ادى انت شايف الجماعة الاغنيا اللى بيسموهم « رجعيين » .. يعنى تفتكر انهم مبسوطين أوى دلوقتى .. وأصل الغنى بتاعهم من عرق اللى زيى وزيك .. آه .. ربنا يمهل ولا يهمل .. طيب أنا أعرف واحد منهم اتنقط .. مع انه عنده بعد اللى حيروح منه ميت فدان !

قال الرجل الثانى :

ـ يا سلام على طمع الدنيا .. ميت فدان ومش عاجبه !

أيوه يا أخ .. ربنا يغنينا بالحلال ..

اغتاظ حسين من كلام الرجل الاخير ، أحس انه يريد أن يمسك به ويخرج من جيبه الورقة ليعيدها الى صاحبها .. فقام مسرعا ، ووجد عربة ترولل باس واقفة فى محطتها ، فقفز اليها وجلس على مقعد بالدرجه الأولى ، لأول مرة بالدرجة الأولى ... وضايقته نظرات الجالس الى جواره .. كانت هذه النظرات تقول له : ابتعد ، فبنطلونك وسخ .. وأراد أن يرد عليه .. أى على نظراته .. بنظرة تقول له : انت رجعى ! ولكن نظراته توقفت ولم تقل ذلك ، لان الرجل يمكن أن يكون محترما يكسب رزقه بعمله .. نعم .. وأنا الآن فى جيبى مبلغ لم اكسبه بعمل .. سرقته .. ولكن كيف سرقته وهو الذى سقط على ؟ لا ، أنت هربت به ، وكان يجب أن تعيده الى صاحبه الذى يمكن أن يكون قد اكتسبه بكده وعرقه ، كان يجب أن تعيده الى صاحبه ياحرامى يارجعى .. نعم أنا الرجعى .. فقير ورجعى !..

وشعر برغبته فى أن ينتقل الى الدرجة الثانية ، لان ركابهـا لن ينظروا اليه تلك النظرات ، وفى الوقت نفسه لمح الكمسارى مقبلا من جهة السائق ، وهو يجيد مراوغة الكمسارى ، وقلما يدفع .. فنهض من مقعده ، وكانت واقفة بالقرب منه سيدة مسنة ، فظنته يقـوم لها ، فجلست وهى تدعو لشبابه ..

وكانت الدرجة الثانية مزدحمـة بالركاب الجالسين والواقفين ، فوقف بين الدرجتين وهو يرقب تحركات الكمسارى .. وسمع السيدة المسنة تنادى الكمسارى قائلة :

« تعال يا ابنى .. خد قرش .. أنا قاطعة بقرش بس .. الدنيـا ما تغنيش عن الآخرة .. » .

« ايـ ... ـــيه حتى انت ! » .

قالها فى نفسه وانسل بين ركاب الدرجة الثانية متجها الى الباب .

المرأة المسنة في الترولل باس ، والرجل الذى يتكلم فى القهوة عن الرجعيين وتجار المخدرات ، ونظرات الرجل الباسمة فى الشرفة .. كلهم تكتلوا ــ فى احساسه ــ ضده .. انهم جميعا يطاردونه .. والورقة المالية ــ جسم الجريمة ــ فى جيبه .. الى أين يذهب !.

آه .. هذا مطعم فخم .. طالما مر به وبأمثاله وتمنى أكلة فيه .. وجاء اليه خادم المطعم بما طلب .. كباب وكفتة مشوية .. شيء عظيم .. ولكنه لم يجد اللحم فى فمه لذيذا شهيا كما كان يتمناه .. أين هذا الكباب من سندوتش الطعمية الذى كان يلتهمه أو طبق الفول الذى كان يوضع بينه وبين زميله حامل البيانولا .. « حامد » الذى أكل معه « عيش وملح » :

« اخص على كده .. يا خاين .. » .

وانضم حامد ــ فى احساسه ــ الى المتكتلين ضده ..
ماذا يريدون .. ؟

ودعك الورقة فى جيبه بعصبية ، ولم يستطع أن يخرجها فى المطعم .. خيل اليه أن خادم المطعم يعرفها .. كان لا يزال معه « فكة » فدفع منها الحساب .

عجيبة .. البلياتشو .. الجن .. الذى لم يعرف الارتباك فى أى موقف .. تضرب وياه لخمة كده .. !

نام حسين ليلته نوما متقطعا .. كلما استغرق فى نومه هاجمته الرؤى المزعجة .. وانضم الكابوس الى مطارديه .. قال لزينب فى احدى نوماته :

ــ خلاص يازينب .. مابقتش بلياتشو .. شايفة الفلوس .. خمسة جنيه .. أنا غنى ..

ردت زينب وقد فارق نظرتها الدلال :
ــ جايبها منين يا حرامى ؟!

وفى الصباح خرج .. لا يعرف الى أين يذهب ..

ووجد نفسه أمام مطعم فول فى شارع شريف ، وأحس بالجوع ، فدخل المطعم ، وكان متبلد الشعور لا يعرف ما يريد ، الا أن يأكل .. نظر الى طبق المدمس فى رغبة وهو يقول فى نفسه : « من فات قديمه تاه » .

ونظر الى رجل جالس فى مدخل المطعم يحصل النقود من الزباين ولم يكن قد التفت اليه وهو داخل .. رجل نحيف أصلع ذو شارب صغير .. يمد احدى ساقيه فى استقامة غير طبيعية وقدم الرجل الاخرى تختلف عن هذه القدم .. وبجانبه عصا غليظة معقوفة اليد ..

انه هو الرجل الذى رمى اليه بالورقة المالية من الشرفة ، ربما كان يتمايل لانه أعرج .. يبدو عليه أنه صاحب المطعم .

الرجل على كل حال لا يعرف حسين ، فانه لم يكن يراه الا وهو بلياتشو .. مطلى الوجه بالالوان .. فى زى الشغل .. فليعطه القرشين ثمن الاكلة ويمضى فى طريقه .

أدخل حسين يده فى جيبه ليخرج بقية « الفكة » ولكنه أحس بالورقة ذات الجنيهات الخمسة تتحرك ، وكأن يدا خفية تضعها فى يده.. وصوت فى أعماقه يهتف : لا يا زينب .. لست حرامى .. وان كنت لا أزال بلياتشو ..

وفى اليوم التالى كان حسين يقف فى مطعم الفول ، وكله حيوية ونشاط ، وصوته يرتفع ملعلعا :

ـ واحد فردانى عندك .. زيت زيادة ..

دروس خصوصيّة



دروس خصوصية

« هذا الولد قد غاظنى .. غاظنى جدا .. لا ، لا يمكن بعـــد ذلك أن استمر فى اعطاء هذه الدروس لهذه المجموعة ، ولا لأية مجمـــوعة أخرى ، نتيجة المدرسة فى الشهادة ، احتياجى الى النقـــود ، زوجتى المريضة ، الدكتور الذى أهملها فى المستشفى ورحب بنا فى العيادة ، أجر العملية التى سيجريها لها ، أطفالى المحتاجون الى الرعاية ، كل هذا كلام فارغ .. لا يمكن أن أحتمل من أجله كلمة كالتى قالها ذلك الولد » .

كان الاستاذ كامل يكلم نفسه بذلك ، غير شاعر بما حوله ، وهـو يهبط السلم بعد أن انتهت الحصة وخرج من حجرة الدراسة الكائنـــة بالطابق الثالث بمبنى المدرسة ، وخيل اليه كأن الاولاد ينظرون اليـــه ساخرين أو مندهشين لانهم رأوه يكلم نفسه ، فأطبق فمه وضـــم شفتيه حتى لا تظهر عليهما حركة الكلام .

« عجيبة هذه المهنة .. مرة أقفل فمى وشفتى ، وأحيانا أضطر أن أفتحه وأحركهما ، كأنى أتكلم وأنا لا أتكلم ، وذلك عندما يزيط الاولاد فى الفصل .. اذ أقوم بهذه الحركة ليسكتوا ويسمعوا ما أقول .. ثم أرفع صوتى بشرح الدرس ! هل أنا مجنون ؟ ان لم أكن قد جننت بعد فسأجن حتما .. فى البيت أطفال يصرخون وزوجة مريضة فى انتظار العملية ، وفى المدرسة أولاد عفاريت ومع هذا أغبياء .. ومفتش .. أعوذ بالله من المفتشين .. خلى المفتش على جنب ! وناظر يجلس على الكرسى المتحرك فى مكتبه المطل على الحديقة ويريد النتيجة .. أحسن نتيجـة فى المنطقة .. لا ، لا يمكن .. كل شىء يهون عدا أن أسمع الكلمة التى قالها ذلك الولد ! » .

أوشك أن ينطق الجملة الاخيرة بصوت مسموع ، كأنه يحضر ما سيقوله للناظر ، حياته كلها تحضير فى تحضير .. لعنة الله على التحضير

ودفتر التحضير .. لقد كتب اليوم فى هذا الدفتر عن الحصة الاولى التى فرغ منها الآن ، كتب انها مراجعة .. كان متعبا مكدودا ، خرج من منزله دون أن يفطر ، اذ لم يجد فى نفسه شهية ، زوجته مريضة فى الفراش ، والخادمة الصغيرة .. جاءت المخدمة من بلدها منذ أيام وأخذتها بحجة أن أباها يريد أن يراها ، وأمها ميتة ، والحقيقة ـ كما هو متبع ـ أن المخدمة أخذت البنت لبيت آخر تأخذ منه « المعلوم » والأب يكفيه من عنده من أولاد الزوجة الجديدة ، ولا يعنيه من بنت الزوجة القديمة الا أن يأخذ أجرها ..

من أية طينة صنع هؤلاء الناس .. ؟ أنا مثلا .. لو فرضنا .. لا ، هذا فظيع ! ومع ذلك نفرض ـ والاعمار بيد الله ـ انها ماتت .. فهل أفرط فى سامية أو وفاء أو أحمد .. ؟ ولماذا أعيش اذن ؟ ان أولئك آباء من نوع آخر .. فقر ؟ وما هذا الذى أنا فيه ؟! فقر يختلف عن فقر ؟ يجوز .. » .

كان الصغير « أحمد » يصرخ صباح اليوم ، وسامية ووفاء هما أيضا تريدان تسخين اللبن ، و .. الخ . انه يفلسف الواقع ، كما تصحه المدرس الاول للغة العربية ، ويلاعب الاطفال ويشاركهم لعبهم فى بعض الاحيان كأنه واحد منهم .. ولكن حالة زوجته اليوم كانت شديدة ..

أطعم الاطفال وأسكتهم على قدر ما استطاع ، ولبس ملابسه وحذاءه .. لم يلتفت الى شىء منها ان كان نظيفا أو غير نظيف أو محتاجا الى رتق أو تركيب زرار أو غير ذلك .. والكرافتة لم يفكر اليوم فيمن اخترعها وما فائدتها .. ربطها كيفما اتفق .. وخرج .

ولما وصل الى المدرسة لم يكن مستعدا لشرح درس جديد ، صحيح أن الامر لا يكلفه أكثر من قراءة الدرس فى الكتاب المقرر ، ولكنه ليس معلما قديما يستطيع أن يلقى الدرس كأنه « اسطوانة » تدور على « الحاكى » كما يسمونه فى المدرسة .. انه يدرس للسنة الثالثة الاعدادية

لاول مرة ، تناول دفتر التحضير وكتب فيه التاريخ والحصة الاولى ، وفى خانة « الدرس » كتب « مراجعة » ولما كان المفتش ــ المتوقع حضوره فى أى وقت ــ لا يقنع بكلمة « مراجعة » فقد كتب أسماء الابواب التى تجرى فيها المراجعة ، ونقل من الكتاب المقرر بعض الاسئلة ..

***

كان الاستاذ كامل ــ وهو يصعد الى الطابق الثالث ــ يفكر فى مرض زوجته والعملية اللازمة لها ، واستراح باله بعض الشىء الى مسألة المجموعة .. مجموعة التلاميذ الذين يدرس لهم مساء بأجر اضافى فسيحصل من هذا الاجر على مبلغ يستعين به فى تكاليف العملية وما يتبعها ..

كان يريد أن يؤجل اجراء العملية لزوجته الى آخر العام الدراسى أو بعد انتهائه ، عندما يحصل على أجور الدروس الخصوصية التى تكثر عادة قبيل الامتحان ، ولكن حالة المرض تتطلب الاسراع ونحن الآن فى منتصف السنة الدراسية، ووجد الفرصة والحل فى نظام المجموعات الذى أمر به ناظر المدرسة ، كل طالب من طلبة الشهادة الاعدادية ــ من يرغب منهم ــ يدفع خمسين قرشا فى الشهر لقاء أخذ دروس اضافية فى مجموعات مسائية .

وسرح فكره فى الطبيب ..

« كيف أصدق أن هذا الذى استقبلنا فى عيادته الخاصة وكله انسانية .. هو نفسه الذى حكت لى زوجتى ما حدث منه فى المستشفى ؟ ولولا اننى أسمع وأعرف أن هذا يحدث كثيرا ما صدقت ، وهى .. لماذا تكذب ؟ ألأذهب بها الى طبيب فى عيادته الخاصة بدلا من ذهابها الى المستشفى ؟ لقد عرضت عليها ذلك أولا ، فرفضت وقالت اننا معذورون وان الحالة لا تسمح ، ولم أعد عليها العرض لأن الحالة لم تكن تسمح فعلا ، أما الآن فقد رزقنا الله بدروس هذه المجموعة » .

كانت زوجته تحكى له مايجرى ، عقب عودتها من المستشفى ، قال

لها الدكتور أول مرة : ليس عنـــدك شيء • ولم يفحصها ، بل اكتفى بالسؤال التقليدى فى المستشفيات : « عندك ايه •• ؟ » •

ومرة ثانية كانت آلامها واضحة ، فقال لها الطبيب نفسه موبخا : ما الذى أخرك حتى الآن • ولم يكن عنده وقت •• ليسمع منها انها لم تتأخر حتى الآن ! وكتب لها دواء لم تجده فى المستشفى ، فاشتراه الاستاذ كامل من الصيدلية ، واستعملته ولم ينفع ••

وحكت الزوجة لزوجها ــ فيما كانت تحكى عقب عودتها مـــن المستشفى ــ أن احدى المريضات اللائى كن معها وقت الدخول عـــلى الطبيب فى طابور وعندما وبخها لانها تأخرت وصبرت على مرضها حتى الآن ــ قالت لها فى لهجة العارف الواعى وهى تغمز بعينها وتهز رأسها :

« ايه اللى أخرك يادلعدى لدلوقتى ••؟ ماروحتيش العيـادة ليه ؟ أصله شايفك لابسة فستان غالى •• ومنتش وش المستشفى البلاش » •

وقالت امرأة ثانية مؤمنة على كلام الاولى :

« آه •• من عاش بلاش راح بلاش » •

وتذكر الاستاذ كامل ــ وهو يصعد الى حجرة الدراسة ــ الطبيب نفسه عندما ذهبا اليه فى عيادته ، ذهبا اليه دون غيره كى يساعدهما على اجراء ماقد يلزم من تحليلات وصور فى المستشفى مجانا •• وطمأنهما بعبارات رقيقة وأفهمهما أن العملية لا خطورة فيها وأنها ستحسم الداء وتقضى على الآلام •

• عجيبة •• أزعجها فى المستشفى وطمأننا فى العيادة !•• ولكن•• ولكن لا بأس •• ألم يقل لها أول مرة انه ليس عندها شيء ؟ على كل حال العبرة بالنتيجة ، فليكن الدكتور ما يكون •• مالنا وماله •• سيعمل العملية وربنا يأتى بالعواقب سليمة ، وماذا فى أن يعمل الانسان على أن ينتفع ماليا ؟ نعم ؟ الاخلال بواجبه فى المستشفى ؟ لا ، الحق عليها ، هى التى ذهبت بأحسن فستان عندها •• ظنها غنية •• لا يعـــرف ما وراء المظهر •• مصيبتنا اننا نضطر الى المظهر ••

« وأنا .. الست مثل الدكتور .. لقد لمحت فعلا لبعض التـــلاميذ الضعاف الذين يبدو عليهم الغنى ولم يشتركوا فى المجموعة .. وبدأت فعلا أهملهم فى الفصل وأؤنبهم أحيانا ، وافاد هذا مع بعضهم فاشتركوا فى المجموعة ، حقا انهم سيستفيدون ، وأنا سأستفيد ، وكذلك المدرسة أو الناظر .. سيستفيد الناظر من التفوق فى نتيجة الامتحان العام ..سيترقى ولكن .. كم تعذبنا لكن هذه .. ألا يمكننا جميعا - الدكتور والناظـر وأنا وأمثالنا - أن نؤدى أعمالنا دون أن نضطر الناس الى أن يدفعوا مقابل ما من حقهم أن ينالوه من غير دفع .. ونكلف بعضهم ما لا يطيق .. ؟ أنا مثلا .. يضطرنى الطبيب ، والطبيب .. لابد هناك ما يضطره ، نحن نعقد الحياة بعضنا على بعض ، والحياة نفسها سهلة » .

وأحس الاستاذ كامل بشىء من الخزى فى نفســه لما خطر له أن التلاميذ لابد ينظرون اليه كما نظر هو الى الطبيب .. انه لم يشعر له باحترام برغم اضطراره الى التلطف معه وتملقه .. وانزعجت نفسه ،اذ تصور أن موقف تلاميذه منه مثل موقفه من الطبيب ، لا يحترمونه .. انها مصيبة ..

وعندما وصل الى باب حجرة الدراسة تنبه الى أنه استرسل فى هذه الخواطر بشكل لا يتفق مع ما يلزمه من الراحة النفسية فى الدرس ، فطرد تلك الخواطر من نفســـه ، واستعد للدخول فى هيئـــة المدرس الحازم ، وحاول أن يستجمع قواه كى يسيطر على الدرس ، وقف على الباب قليلا كى يدخل تلاميذ متأخرون ، قال له أحدهم - وهو تلميـذ متقدم ومشترك فى المجموعة : -

- صباح الخير يا أستاذ ..

رد عليه الاستاذ بصوت يجمع بين الحزم والعطف :

- صباح الخير يا سمير .. متأخر ليه ؟ ادخل ..

دخل سمير مسرورا ، وكله ثقة بنفسه ، لأنه أحس أن الاســتاذ يقدره وهو يخاطبه باسمه ويهتم به .

كان الاستاذ كامل قد اعتاد أن يسأل التلاميذ فيما درسه بعنـــاية للمجموعة المسائية ، فاذا لم يجب غير المنتظمين فيها اجابة صحيحة أشار الى واحد من المجموعة فأجاب .. وبهذا يثبت فائدة الدروس الاضافية .

ولكن التلاميذ العفاريت كشفوا هذه الطريقة .. وفى هذا اليوم وقعت الواقعة التى أقلقت بال الاســـــتاذ كامل وجعلته يغلى فى داخله كالبركان المكبوت ، ويريد أن ينفجر أمام الناظر ، ويعلن أنه لن يعطى دروسا اضافية منذ اليوم ، وليكن مايكون ..

ذلك أنه كان يوجه أسئلة المراجعة الى التلاميذ ، فيرفعون أصابعهم طالبين الاذن لهم بالاجابة ، منهم من يمد يده الى الأمام ويحركها ، ومنهم من تدفعه الحماسة الى طقطقة اصابعه ليسترعى انتباه المدرس ، ومنهم من يرفع اصبعه فى فتور ويود فى نفسه الا يقع الاختيار عليه ، وكان مـن هؤلاء التلميذ الجالس بجوار سمير ، والذى كان يشعر بزهو جـــاره - سمير - ويريد أن ينافسه ولكن فى غير ثقة .. ولحظه الاستاذ ، فأشار اليه أن يجيب ، فتعثر لسانه ، فزعق له .. كان يريد أن يعدل عنه الى سمير لكى يجيب عن السؤال نفسه .. ولكنه عندما زعق تبخر هدوءه الظاهر وانحل التماسك الذى اصطنعه وهو داخل الى الفصل .. فأمسك بمسطرة وقال للتلميذ المتعثر :

- مد ايدك ..

- حاضر يا أستاذ ..

قالها الولد وهو يبسط يده ويقبضها .. ثم يبسطها ويقبضها ..

وهوت المسطرة على الفضاء فى اللحظة التى كان الولد يعيد يده اليه .. الى نفسه ..

فرفع الاستاذ صوته والمسطرة فى وقت واحد :

- مد ايدك يا ولد !

فجاءته الكلمة التى أشعلت نار البركان :

- حاضر يا أســـتاذ .. حادفع .. حادفع والنبى .. واجى فى المجموعة ..


تلميذة زمان

تلميذة زمان

ـ يافندى .. يافندى .. يا .. يا دكتور سامى !!

التفت الى مدهوشا ، ولمحت على وجهه عـــدم الارتياح ، فقد اندفعت أناديه بكلمة « أفندى » كما كنت أقولها له من نحو خمس عشرة سنة فى المدرسة .. وكانت معى صديقتى محاسن ، فكانت تلكزنى بيـــدها مستنكرة ، وأدركت أنا ذلك بسرعة فاستدركت بسرعة أيضا وقلت :

« يا دكتور سامى » .

لم أتردد ـ بمجرد أن رأيته ـ فى أن أحدثه وأعرفه أو أذكره بى .. وبصراحة .. لم يكن هــذا اللقاء مصادفة ولم يجىء عفوا .. عرفت أنه كان فى خارج البـــلاد وعاد أخيرا ، وأنه الآن مدرس فى الجامعة ، وأنه يتردد على النادى ، فجئت ومعى « محاسن » التى تعرف سرى معه .. أقصد حقيقة مشاعرى نحوه .

وكانت لحظة خاطفة شعرت فيها بصباى وأنا أنادى أستاذى بالكلمة نفسها « أفندى » التى كنا نخاطب بها المدرسين بمدارس البنات فى ذلـك الزمان ..

كان سامى أفندى شابا حديث التخرج ، لقد تغير الآن شكله ، غزا الشيب رأسه ، وامتلأ جسمه قليلا ، وصارت مشـيته وئيدة ، ولكنه فى لفتته ونظرته شبه الغاضبة وصوته وهو يدنو منى الآن ويقول : « نعم .. حضرتك بتنادينى ؟ » ، وقد حاول أن يلطف لهجته بشبه ابتسامة حتى لا يبدو جافا أمام سيدة .. ولكنه فى هذا كله هو هو .. ترى ماذا فعل بى الزمن أنا الاخرى ؟ .. وماذا تكون نظـــرته الى اذا عرف أننى ..

عواطف التى كانت أطول بنت في الفصل •• هكذا قال لى مـــرة وقد أردت الجلوس مكان تلميذة غائبة فى مقدمة الفصـــل وكان مكانى فى الصف الاخير •• لما رآنى فى الصف الاول قال لى :

ـ انت قاعدة هنا ليه يا عواطف ؟

ـ كنت أسر جدا عندما يخاطبنى باسمى •• كنت أفسر ذلك فى نفسى أو كان يحلو لى أن أفسر ذلك بأنه من قبيـــل رفع التكليف بين الحبايب •• وكم كنت أتمنى أن أخاطبه أنا أيضا باسمه مجردا ! عللت جلوسى مكان التلميذة الغائبة تعليلا غير حقيقى ، قلت له :

ـ من فضلك يافندى أنا عايزة أقعد هنا عشان أشـــوف التختة كويس •

ـ لكن أنت أطول تلميذة فى الفصل وحاتدارى على اللى وراكى ، وكمان عنيكى مش شيش بيش !

ـ ظريف والنبى يافندى ••

وجاملتنى التلميذة التى تجلس خلفى فى الصف الثانى بأن قالت :

ـ معلهش يافندى أنا شايفة ، خليها قاعدة •

كنا نعاكس بعض المدرسين والمـــدرسات ، ولكن معاكســـاتنا أو معاكستى أنا لسامى أفندى كانت تختلف •• كنا نعـــرف أنه لم يتزوج بعد •• ولم يكن فرق السن بينى وبينه كبيرا •• لا يزيد على ســـبع أو ثمانى سنوات •• والاهم من ذلك كله أن دمه خفيف ••

كان المقعد الذى جلست عليه فى آخر الصف الاول بجوار الكرسى الذى يجلس عليه أحيانا ونحن نحل التمرينات والمسائل ، وهذا هـــو المطلوب •

لست أنسى منظره وقد ارتبك واحمرت أذناه •• عنـــدما أحس بقدمى العارية الا من الجورب بين رجليه •• انتفض واقفا وأمســـك بقطعة الطباشير وراح يشرح مسألة قال انها صعبة ••

ـ أيوه يا دكتور سامى •• طبعا ما انتش عارفنى •

ـ أتشرف يا افندم ••

واندفعت أقول له على حين كانت « محاسن » التى استصحبتها لكى أتغلب بها على ما عسى أن يتملكنى من الخجل •• كانت مرتبكة وتحاول أن تلكزنى أو تضغط يدى وهى ملتصقة بى ، كانت هى الخجلى ••

ـ أنا عواطف يافندى •• عواطف تلميذتك بمدرسة ••

ـ أيوه •• أيوه •• عواطف ! أهلا • أهلا • أزيك يا •• عواطف هانم !

ـ لا لا •• عواطف بس •• بتاعة زمان ••

ولم أكرر كلمة « تلميذتك » لانى كنت أحب أن أكون له أكثر من تلميذة ••

ـ لكن عواطف بتاعت زمان كانت شقية ••

ولعله أراد أن يكون لطيفا فأتبع ذلك قائلا :

ـ والله زمان يا عواطف ! أنا سعيد اللى شفتك دلوقتى ••

سكت وأنا أدنو منه وأنظر اليه بحب •• وقلبى يلتقط كل كلمة ينطق بها ومشاعرى تتعلق بنبرات صوته ونظراته •• وكنت أحس بمحاسن تعترض على طريقتى معه وان لم ألتفت اليها •• كنت أحس بها كأنها تقول لى : « مش كده •• يابت اتقلى شوية ! » وأنا لم أعرف التقل معه أبدا •• ولم أكن أجد طريقة تجعله يغير معى لهجة المدرس ونظرته الى التلميذة سوى أن أهجم عليه •• انه يذكرنى الآن بانى كنت «شقية» وله حق •• لا أظنه نسى اليوم الذى صارحته فيه بحبى لاول مرة بعد خروج جميع التلميذات من الفصل فى آخر حصة •• وذلك انه عندما دق جرس انتهاء الحصة الاخيرة قال بصوت آمر ـ وفق النظام المتبع ـ « استعداد » ثم قال : « قيام » ثم « خروج عن المقاعد » ثم « انصراف » •

كل ذلك وأنا أتظاهر بالانهماك والارتباك فى اعداد أدواتى وكتبى •• أخرجها من الدرج وأضعها فى الحقيبة وبالعكس •• حتى خرج الجميع ولم يبق الا أنا وهو ••

ـ كده يا عواطف •• يعنى مافضلش الا أنت !

ـ مانا قاصدة كده •• !

ـ يعنى ايه ؟!

ـ عايزه أبقى أنا وانت بس لوحدنا ••

ارتبك وظهر عليه الحرج والغضب وكرر منفعلا ـ قوله :

ـ يعنى ايه ؟!

ـ برضه لما تزعل بيبقى دمك خفيف !

ـ دمى خفيف •• انت خليتنى فى دم ! ••

ـ وظريف •• وبحبك ••

فأسرع خارجا وتركنى دون أن يلتفت الى نظرات الحب التى أسددها نحوه ••

تماما كما أنظر اليه الآن وهو يقول لى : « أنا سعيد اللى شفتك دلوقتى » ، التمست له العذر عندما تركنى فى الفصل •• والا فماذا كان يفعل ؟ انه مدرس ! كان برغم اعراضه وغضبه لا يوجه الى أية لفظة مسيئة ، وكنت أحس أنه فى صميم نفسه يحبنى أو على الاقل يميل الى برغم تضايقه من تصرفاتى وبرغم ذلك الاعراض ، وقد تزود قلبى بما يكفيه مدى الحياة من نظرات الحب التى كنت أوجهها اليه فى أثناء الدروس ، وكنت أقاوم الهيام به مقاومة شديدة حتى أستطيع متابعة الدرس وأظفر برضائه كتلميذة مجدة ، أو على الأقل غير مهملة ، وكان موقعى فى آخر صف بالفصل موقعا « استراتيجيا » هاما فى تسديد سهام النظر اليه ، أما هو فكان أحيانا يرتبك وأحيانا يبدو عليه الارتياح ،

ويغضب ان اندفعت فى سؤال أو تعليق مائع .. ولم يكن يغيظنى منـه مثل جريه منى فى الطرقة التى بين الفصول أو فناء المدرسـة وأنا أكلمه فى أى شىء .

قلت له مرة :

ـ هات صوف وأنا أعمل لك بلوفر ..

ـ انت حاتذاكرى ولا حاتعملى بلوفرات ..

ـ ومالو ؟ كده وكده .. وكمان اختى قاعـدة فى البيت وبتشتغل تريكو ..

ـ متشكر .. أنا عندى كفاية ..

وكان يسرع فى المشى وعينه تبحث عن أحد زملائه ليشتبك معه فى حديث ..

ومرة أخرى قلت له :

ـ أنا وحشة يا أفندى ؟!

ـ لأ ..

ـ امال بتجرى منى ليه وتدور وشك بعيد ؟

ـ عشان انك مش وحشة !

ـ وكانت هذه كلمة الغزل الوحيدة التى سمعتها منـه .. وكانت بلسما لجراح ..

★ ★ ★

قطع الدكتور سامى الصمت الذى ساد بيننا برهة بأن تحرك متجها صوب باب النادى وهو يقول :

ـ عن اذنك .. الست مستنيانى فى العـربية بره عشان رايحين السينما ..

ـ مع السلامة ..

لابد أنها خرجت من فمي جافة .. فقد جف حلقى وغامت الاشياء أمام ناظرى ..

ولكن سرعان ما تنبهت وزالت الغشاوة عن عينى . من تكـــون زوجته ؟ هل هى البنت التى رأيتها معه من خمس عشرة ســـنة فى تلك الايام بحديقة الاندلس ..؟ كنا لا نزال ـ أنا وهو ـ بالمدرسة .

وفى يوم جمعة رأيتهما معا هناك فاندفعت أسلم عليه .. صافحنى مرتبكا أما هى فقد لوت بوزها ومشت بعيدا .. أحسن خليها تنفلق ! والواقع اننى أنا التى انفلقت ، فقد أخذ يده من يدى وأسرع اليها .

قلت لمحاسن : تعالى نشوف مراته ..

ـ يا شيخه اعقلى .. لاحسن يشوفنا بنبص عليهم .

وفى يوم الخميس التالى ذهبنا الى النادى ، فقـــد عرفت من تتبع أخباره أنه يحضر الى النـادى كل يوم خميس ، وكانت محاسن قالت لى :

ـ دا لازم بيروحوا السينما كل يوم خميس بعد ما يخرج مـــن النادى ، فحنروح نلاقى الست هانم مستنياه بالعربية .

ـ نروح بدرى ..

ورحنا بدرى .. وقابلناه .. وعادت بى الذاكرة الى الوراء خمسة عشر عاما .. الى فناء المدرسة .. سلم علينا وقال : « ازاى الحال ؟ » ، حتى كانت عينه تبحث عن أحد يكلمه .. تماما كمــــا كان يبحث عن زملائه فى المدرسة !

واستندت الى محاسن حتى لا أقع على الارض ، فأخذتنى الى أقرب مقعد .. وأرادت أن تسرى عنى :

ـ الرجالة كده .. مالهمش أمان !

ـ أيوه يا محاسن ..

ولما تحسنت حالتى رأت الفرصة سانحة لتأنيبى فى مزاح :

ـ تقدريش تقولى لى انت عايزه منه ايه ؟ ..

ـ ولا حاجة ..

ـ امال ليه دا كله .. يا شيخة اعقلى وروحى لجوزك .. له زمان مستنيكى فى البيت .. الراجل الطيب اللى بيحبك ويتمنى رضـاك ولا بيقول لك رايحة فين ولا جاية منين .. أصل الطيب مالوش نصيب ..

ـ أصلك ماجربتيش يا محاسن ..

ـ طبعا ماجربتش أعمل زيك كده .. أفكر فى اللى ناسينى وأنسى اللى فاكرنى !

ـ بس لو كنت أعرف هو ليه بيعمل كده .. يعنى هو أنا عايزه منه ايه على رأيك .. الا نقعد مع بعض شوية ونتكلم شوية ..

ـ ولما تشوفكم الست هانم ؟ .. تنزل من العربية مثـلا وتخش تلاقيكم ..

ـ ما هو أنا عايزه كده .. عايزه أحرق قلبهـا زى ما حرقت قلبى ! ..

ـ سيبك من دا كله .. روحى لجوزك واتفقى معاه انكم تروحوا السينما كل يوم خميس ..

ـ والله فكرة .. دا كان أحمد ينبسط أوى .. تعـرفى أنا مش بكرهه .. بس الحب .. الحب يا محاسن ! .

ـ حب ايه ياختى اللى انت جايه تقولى عليه ؟!

ـ اسمعى تجيش نروح للشيخ مهنا .. ؟

ـ ما رحنالو .. ولا منه فايدة .. هاتى الاطر .. واسمه واسـم أمه .. ولا فايدة ولا عايدة ..

ـ لكن كلامه بيريح الاعصاب •• آه لو كان يقول لى ليه سـامى بيبعد عنى ويجافينى ؟ ••

ـ يا عينى •• يا عينى •• ما تعملى مؤلفة أغانى أحسن ••

ـ يعنى ما أشبهش •• دا اللى فى قلبى يشغل الاذاعة سنين ••

لا أدرى ماذا سأفعل •• هل سأذهب الى زوجى لنتفق على الذهاب الى السينما كل يوم خميس •• أو سأذهب الى الشيخ مهنا عساه يقـول لى : لماذا يعرض عنى حبيبى ؟


زوج المدرسة

زوج المدرسة

ـ يا جماعة كفاية سهر •• أنا عندى غسيل بكرة ••

لم يكن القائل سيدة •• ربة بيت تحرص على أن تنام مبكرة كى تستيقظ فى الصباح الباكر لتقوم بغسل الملابس ••

بل كان القائل « مصطفى » وكانت معه زوجته « رجاء » فى زيارة جيرانهما ، وكان الغد هو يوم الجمعة ، يوم العطلة الاسبوعية له ولها ، فهو موظف وهى مدرسة ، وقد خصصا صباح الجمعة من كل أسبوع لغسل ملابسهما ••

وامتعضت رجاء من كلام زوجها الصريح المرح ، ولكنها شاركت الجميع فى الضحك لتخفى امتعاضها • وقالت له فى عتاب رقيق وهما عائدان الى شقتهما :

ـ هى كل حاجة هزار •• والا يعنى قصدك تهينى قدام الجيران •• أهو احنا دلوقت ينطبق علينا المثل •• يغسلو هدومهم قدام الناس ••

ـ ولا يهمك •• أصل الناس حايقولوا انى باغسل واطبخ •• فأنا بقول قبل ما يقولوا •• وعلى كل حال سيبك •• ايه يعنى كلام الناس ••

وتذكر مصطفى ما قاله « صلاح » زميله فى المصلحة •• صلاح هذا ثقيل وسخيف •• لو لم يكن هكذا ما أباح لنفسه أن يجرح احساسه فى صورة المزاح •• وندم مصطفى على أن قال أمام زملائه فى المكتب ان زوجته حصلت على تقدير ممتاز من المفتش •• ما كان هناك داع لان يقول ذلك ، ولكن السافل صلاح الذى يحسب نفسه خفيفا وظريفا ابتسم ابتسامة مدببة مثل سن الدبوس •• وقال :

ـ أظن يا مصطفى انك حتاخد تقدير ممتاز فى الطبيخ ••

حقا ان زميلهما الثالث « السيد منصـــور » الرجل الوقور الذى اذا اضطره سياق الحديث أن يشير الى زوجته قال : انهم فى البيت فعلوا كذا .. حقا ان هذا الرجل المتحفظ نظر الى صلاح نظرة مستنكرة ، ولكن هذه النظرة كان لها وخز آخر فى نفس مصطفى .. أحس أنها تقـــول لصلاح : لا يليق أن تستعمل مع زميلك هذا الاســـلوب الوقح .. وفى الوقت نفسه تقول له .. لمصطفى : لماذا يا ابنى تأتى بســـيرة زوجتك هنا ..؟ عيب !

مر ذلك بخاطر مصطفى ، وهو يرد على عتاب زوجته ، كما تمر سحابة عابرة فى جو صاف لا تلبث الا ريثما تسوقها الريح الى بعيد ، وعاد الى مرحه قائلا :

ـ ياللا نتقع الغسيل قبل مانانام عشان أقوم الصبح أغسله .

وأرادت رجاء أن تدافع عن « شطارتها » فقالت :

ـ يعنى انت بتغسل وحدك .. آه لو مكنتش ايدى بتتسلخ ..

قال مصطفى وقد عدل عما كن يريد أن يقوله من أن أمها أهملت تدريبها على الشئون البيتية ، حتى لا تغضب ويثير ذلك امتعاضـــها مرة ثانية ، ولانه خطر له شىء .. قال :

ـ اسمعى .. ايه رأيك فى غسالة كهرباء .. تغسل وتعصر .. ولا ايدين تتسلخ ولا حاجة .

ـ فكرة .. من أول الشهر نجيب واحدة بالتقسيط .

ـ لكن تعرفى ان الغسيل رياضة مفيدة .. يقوى الذراعين و ..

ولم تدعه يكمل بقية الفوائد الرياضية لغسيل الثياب ، فقد قالهـا قبل ذلك ، كما بين مزايا أخرى بدنية لاعمال المنزل الاخـرى ، كمسح البلاط الذى يفيد الرجلين والعمود الفقرى ويمنع تكرش البطـــن .. الخ ، فقاطعته ضاحكة :

ـ فى بقية الاعمال متسع لتمرين جميع أعضاء الجسم •

وشاركها فى الضحك •• ثم ناما مستريحين الى مشروع الغسالة وقد فرحا قبل ذلك بالثلاجة الكهربائية التى دفعا آخر اقساطها منذ شهرين ، والتى استطاعا بها تنظيم طعامهما وحفظه ، فصارا يطهيان مقادير تكفيهما عدة أيام ، وقلت الأصناف التى كانا يضطران اليها فى أغلب الاحيان كعلب السردين والجبن والزيتون •

***

وذات يوم تلقى مصطفى الرسالة الآتية بتوقيع « مخلص » :

« السيد مصطفى عبد العال

بعد التحية أخبرك أن زوجتك على علاقة بالمفتش ••

وتقبلو فائق الاحترام »

دارت الدنيا فى وجهه •• انه يثق بزوجته وباخلاصها له ، ويحبها كما تحبه ، وقد شاركها الفرح يوم قلت له ان المفتش أعطاها درجة « ممتازة » فى التقدير الأخير • والآن ينقلب سروره الى غم ••

الناس لا يريدون أن يتركوا الانسان فى حاله •• فى المكتب صلاح يجرح احساسه بمزاحه البارد ، وكذلك منصور زوج « الجماعة » •• ان تزمت هذا الرجل لا يقل ثقلا عن قلة أدب صلاح ••

وهذا هو « مخلص » يبعث اليه بعوامل الشك فى خطاب •• من يكون هذا المخلص ؟ أليس من الجائز أن يكون مخلصا حقا وتكون المسألة صحيحة ••؟ لقد سمع رجاء تتحدث عن المفتش حديثا وديا •• ولكنه رجل كبير فى السن ورجاء مثل أولاده فهل يعقل ••؟ ولم لا ؟ أليس من الجائز أن يكون متصابيا ؟ ولكن •• رجاء •• هل يقول لها لابد أن تستقيل وتقعد فى البيت ويبحث عن عمل اضافى يسد العجز •• ولماذا ؟ أمن أجل هذا الكلام الفارغ ••؟ وهل على كل رجل متزوج بامرأة موظفة أو عاملة أن يمنعها من العمل حتى يكف « مخلص » عن

ارسال الخطابات ، ويسكت صلاح المتظرف ، ويكف منصور عن نظراته المستنكرة .. ؟

والتفت مصطفى الى نفســه وهو جالس هكذا يدور به فكره فى نواح شتى .. التفت الى أنه يدخن تدخينا متصلا .. يشعل الســيجارة الجديدة من نهاية القديمة .. حتى أوشك أن يأتى على العلبــة التى اشتراها صباح اليوم وهو متردد ، لأنه ينوى أن يمتنع عن التدخين ، فاذا به يسرف فيه ..

وسمع المفتاح يدور فى قفل الباب ، فعرف أن زوجته جاءت .

قالت له :

ـ ياللا نتغدى يامصطفى .

ـ ماليش نفس ..

ـ الله .. انت باين عليك زعلان .. فيه حاجة ؟

وأيقنت رجاء أن لابد هنك شىء هام أقلق مصطفى حينما رأت منفضة السجاير مملوءة بالاعقاب .. ولمحت الخطاب على المنضدة ، فتناولته وهى تقول له : تسمح ؟ وقرأت ..

تهاوت رجاء الى جانب زوجها ، وساد الصمت برهة قطعتها قائلة :

ـ أنت مصدق ؟

لم يجب ، فقالت :

ـ تفتكر ان اللى أرسل الخطاب ده مخلص صحيح ؟

وتذكرت رجاء زميلة لها فى المدرســة اســمها أنيسة .. كانت تنصحها .. ألا ترهق نفسها فى التدريس واعداد وسائل الايضــاح ونماذج الدروس وتقول لها انه لا أحد يقدر .. وان صحتك أحسن .. وكانت تتظاهر بصداقتها .. ولكن لما جاء المفتش وأعطى رجاء التقدير

الممتاز ، وكان نصيب أنيسة تقديرا سيئا ، لوت هذه بوزها .. وسمعتها رجاء تقول لبعض الزميلات :

« لو كان لى سيقان جميلة كنت خدت ممتازة .. »

وسرت رجاء فى نفسها بالتعريض بساقيها الجميلتين .. ولم تهتم باعراض أنيسة عنها وتجهمها لها ..

وكانت رجاء تحكى لزوجها كل ذلك فيما تحكى له من يومياتها فى المدرسة ..

وقالت رجاء :

ـ انت مش فاكر حكاية أنيسة ..؟

واقتنع مصطفى فى نفسه بأن أنيسة هى التى أرسلت اليه الخطاب ، وظهرت على وجهه علامات الارتياح ، وقال لزوجته :

ـ أيوه يا رجاء .. أنا لا أشك فيك أبدا ..

ـ أمال كنت مكشر ليه .. وباين عليك مصدق ؟

ورأت أن الفرصة سانحة لشيء من الدلال والعتاب .. فأرادت أن تسترسل ، ولكنها لاحظت أن وجه مصطفى يعود الى عبوسه ، فقالت له :

ـ مالك .. لسه مصدق ؟

وكانت تتراءى له صورة صلاح المتظرف ومنصور المتزمت .. فعاد يقول :

ـ انت عارفة يا رجاء انى لا يمكن أصدق كلام زى ده .. لكن كلام الناس .. والله .. أنا بفكر انك تستقيلى ونستريح من كلام الناس ! ..

ـ كلام الناس ؟! انت اللى تقول كده .. انت اللى ما بيهمكش كلام حد وبتقول قدام الناس انك بتغسل وتطبخ ..؟

انفرجت أسارير مصطفى وقام متجها الى المطبخ وهو يقول لزوجته :

ـ هاتى الحلة من الثلاجة لما أولع الوابور ..

***

لم تمض أيام على ذلك حتى رقى مصطفى الى وظيفة أعلى ونقل الى مقرها بالفيوم ، وطلبت رجاء نقلها الى مكان عمل زوجها ، ونقلت ..

سر مصطفى بالانتقال من القاهرة حتى يتخلص من الجو الذى يفسد هواءه أمثال صلاح وأنيسة وتعكر صفوه نظرات منصور المتزمتة .. واستأنف الزوجان حياتهما بمدينة الفيوم مغتبطين بالبيئة الجديدة .. وراحا ينظمان أوقاتهما بعد العمل فى الوظيفة بين أعمال المنزل والنزهات فى البلد الجميل الذى يشقه بحر يوسف من الشمال الى الجنوب ، وترسل فيه السواقى نغماتها الشجية التى تتضح بالليل حينما تهدأ الحركة ويسود السكون ..

وشعرا بالسعادة لطيبة الناس هناك وما يسود علاقاتهم من المودة والمروءة ، واندمج مصطفى بطبيعته الاجتماعية فى ذلك الوسط الشبيه بالبيئة الريفية ، وسره أن الناس هناك يتصرفون ويتعاملون على أساس أنهم متعارفون وأن كل ما يفعله أحدهم يحصى عليه ويعرف به ، على خلاف الحال فى القاهرة الصاخبة التى لا يكاد يعرف أحد أحدا الا فى حدود ضيقة ، ولهذا تبدو فيها تصرفات غير لائقة فالرجل مثلا لا يتحرج من أن يسابق سيدة الى مقعد فى الاتوبيس ..

وأحس مصطفى بشعور عميق أعاد الى خياله ذكريات الطفولة البعيدة فى نشأته الاولى باحدى قرى الوجه البحرى ..

ولكن شيئا .. كان يضايقه .. نظرات الناس الطيبين اليه والى زوجته فى غدوهما ورواحهما متلاصقين أو متشابكى الايدى ، باعتبارهما صورة تكاد تكون فريدة هناك ، فالزوجان من أهل البلد اذا اضطرتهما الظروف الى الخروج معا سار الزوج فى المقدمة وسارت الزوجة وراءه على بعد خطوات ملفوفة بالملاءة تنقل خطوها فى حذر ..

روح البلد الجميل الوادع الذى تبعث فيه السواقى نغماتها الحزينة •• سرت فى نفس مصطفى •• فصار يشعر بمزيج من الارتياح والضيق ••

وكاد الضيق يوما يقلب حياته ••

كان عائدا من المصلحة حوالى الساعة الثانية بعد الظهر أول الشهر ، وقبل أن يقصد الى المنزل عرج على البقال ليدفع له الحساب •• رجل من احدى القرى باع فدان أرض كان يملكه وجاء الى المدينة وفتح هذا الدكان • سأله مصطفى عن جملة حساب الشهر ، فتناول دفترا وسخا مربوطا به قلم صغير ذهب لون خشبه •• وقلب ورق الدفتر حتى وقف عند صفحة فيه • وبينما أخذ يجمع بصوت عال كان مصطفى ينظر الى الصفحة فلمح فى أعلاها العبارة الآتية :

« حساب زوج المدرسة »

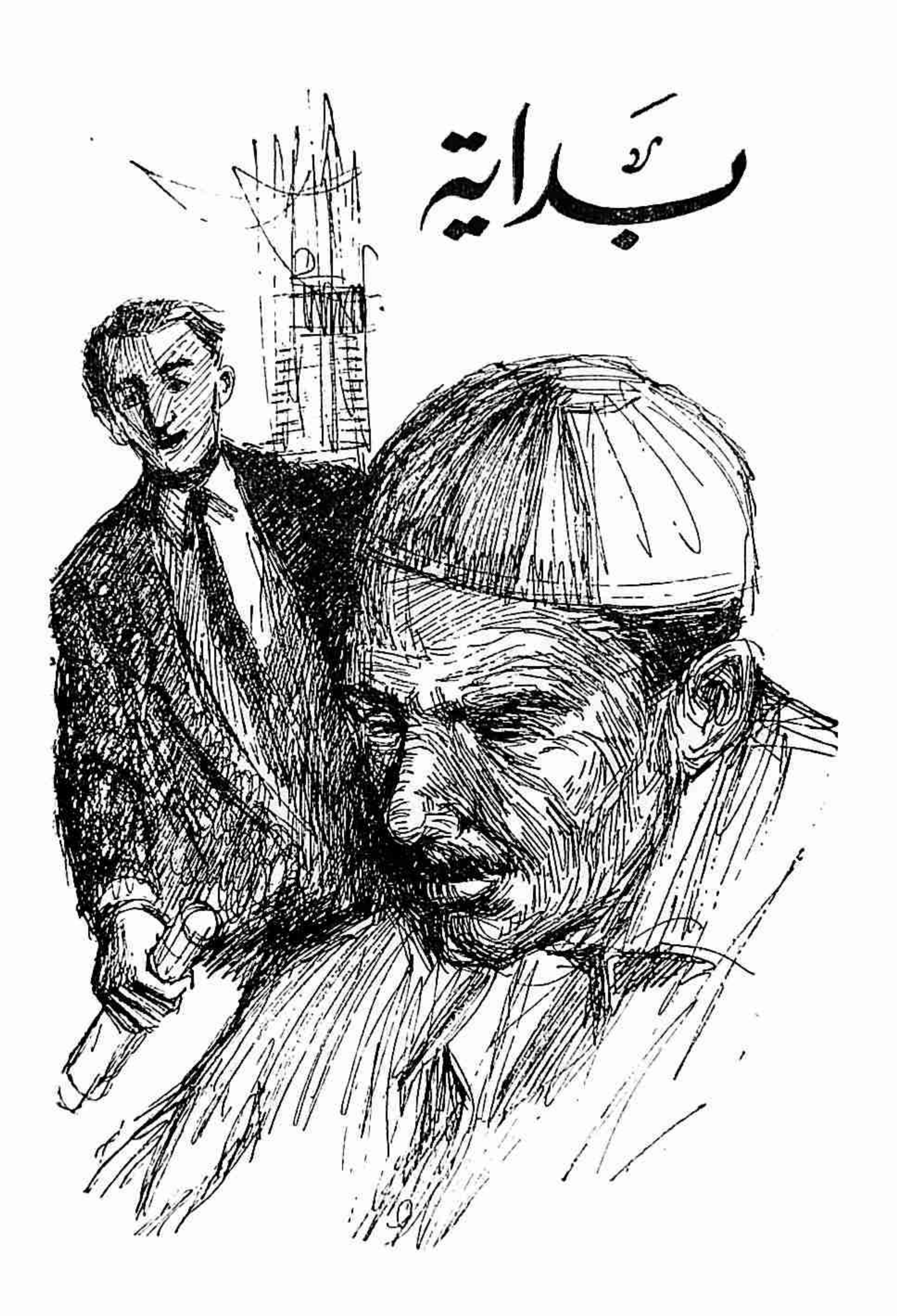
سطر جديد فى صفحة قديمة •• تبدأ بوقاحة صلاح ، وتضم تزمت منصور •• وأنيسة ، والمفتش •• وأخيرا •• زوج المدرسة •

أليس له اسم •• ؟ أليست له شخصية ••؟ هل أصبح يعرف بزوجته ••؟

كانت الافكار والمشاعر المختلطة تدور برأسه وهو لا يدرى مذا فعل حتى وجد نفسه فى المنزل وبيده علبة سجائر •• تنبه الى أنه اندفع الى شرائها وكان قد امتنع منذ مدة عن التدخين •• موعد حضور زوجته من المدرسة اقترب •• هل يجلس حزينا يدخن حتى يملأ المنفضة بالاعقاب ؟ لا •• فليحرقها قبل أن تحرقه ••

شمر مصطفى أكمامه وهو واقف فى المطبخ أمام الحوض وأجرى الليفة المصبنة فى الاطباق كأنه يصر على أن يزيل بها تلك السطور الباهتة فى صفحة حياته ••

بداية



بداية

١٥ من أكتوبر :

كتبت اليوم طلبا وقدمته الى الوزارة عقب اعلانها فى الصحف عن حاجتها الى موظفين من خريجى الجامعات . فرحت جدا بهذا الاعلان ، كان أبى يلح على فى أن نلجأ الى « مصطفى أبو قرش » المعروف فى بلدنا بنفوذه واتصالاته والذى يشاع عنه أنه « ياخد فلوس » ويقضى الحاجات

عارضت أولا فى اتخاذ « الوساطة » وسيلة ، ولكن كان رأى أبى أن الغاية تبرر الوسيلة ، ولما قلت له ان الوسيلة فى نظرى أهم من الغاية غضب وقال ان هذه الفلسفة لن تشترى لى بدلة ..

أطعت أبى ارضاء له وذهبنا معا الى القاهرة لمقـــابلة قريبنا الموظف الكبير ، فوعدنا خيرا ، ومنذ ثلاثة أشهر أتردد على مكاتب كبار الموظفين الذين يرسلنى اليهم بعد أن يتصل بهم بالتليفون أو يقول لى انه كلمهم ويعطينى بطاقة ، ولا فائدة ... وكان بعضهم لا يســـمح بمقابلتى بل يأمر السكرتير أن يأخذ منى الطلب ، فاذا عدت لأسأل عما تم فلا أظفـــر الا باجابات يظهر أن أصحابها تعلموا جيدا كيف يجيبون بما لا يفيد .. وكان بعضهم لا يلتفت الى متظاهرا بأنه مشـــغول جدا .. وكان أحد الســـكرتيريين يطلب منى فى كل مرة أن أكتب طلبا آخر ، لأن طلبى « اندشت » ..

وأخيرا صرخ أبى من نفقات السفر الى القاهرة وأثمان طوابع الدمغة التى تلصق على الطلبات ، وقال لى :

« مش أحسن من دا كله اننا نجمع مبلغ ونديه لمصطفى أبو قرش؟»

وسكت ، ولكن أبى لمح على وجهى التأثر والأسى ، فخفض صوته وقال فى تراجع مشوب بالحنان :

« بلاش ... أنا عارف ان راسك ناشفة »

وأنا الآن مسرور جدا ، لأن الوزارة أعلنت بنفسها وأراحتنا من كل شىء ...

٣٠ من أكتوبر :

ذهبت اليوم الى الوزارة لاعرف ماذا تم ، وقابلت هناك بعض الزملاء المتقدمين للوظائف المعلن عنها ، بعضهم أعرفه من الكلية ، وبعضهم عرفته من وقفته فى الطرقة ، وتسمعه ، ونظراته القلقة المستطلعة .. ولابد أنهم عرفونى كذلك .. كدت أصاب بخيبة أمل ، ولكن الذى طمأننى بعض الشىء أن سكرتير وكيل الوزارة قال لنا فى نبرة المعتز بأهميته أنه سيجرى امتحان لاختيار العدد المطلوب من بين المتقدمين الكثيرين . وبرغم هذا « لعب بعبى الفار » .. هل كنت مبالغا فى تفاؤلى ؟

وعندما رجعت الى البلد وأخبرت أبى بذلك سكت كأنه يتحرج من أن يقول شيئا يغضبنى ، ثم قال وكأنه يسرى عنى :

« معلهش .. بكرة تتعدل »

١٠ من نوفمبر :

كانت عندنا اليوم « أم على » الخاطبة التى خطبت أختى بوساطتها لشاب مناسب فى بلدنا .. وتكلمت فى شأن اتمام زواج أختى ، فأخبرتها أمى بأننا عقدنا العزم على أن نرجىء هذا الزواج حتى أتوظف أنا ، لان الوظيفة قد تحتاج الى « تكاليف » ، وتضايقت أنا من كلمة تكاليف التى تحتمل الرشوة .. وقالت الخاطبة لأمى :

ـ وعلى ايه تدفعوا فلوس .. مصطفى أبو قرش يوظفو ...

ـ وهو مصطفى أبو قرش حيوظفو من غير فلوس ؟

ـ أيوه ...

ـ ازای ؟

ـ المسألة بسيطة ، خليها على أنا ..

سكتت أمى مندهشة ، ونظرت اليها مستفسرة ، فقالت أم على :

ـ أصل عنده عروسة .. بنت أخوه اللى مات وأمها اتجوزت وقاعدة معاه وهو بيحبها ويتمنى لها العدل ..

وأخذت « أم على » مصاريف السفر الى القاهرة لمقابلة « أبوقرش » لانه يقيم فيها ولا يجىء الى البلد الا قليلا .

۱۷ من نوفمبر :

سافرت أمس الى القاهرة على أن أذهب الى منزل مصطفى أبوقرش وأرى « العروسة » بعد مناقشات بينى وبين والدى ووالدتى ، اضطررت على أثرها أن أوافق على الزواج من البنت اذا اعجبتنى ، وقد جهد أبى فى اقناعى بأن المسألة ليس فيها شىء ، وأنه من الجـائز أن تكون البنت اليتيمة زوجة صالحة ، وأن مساعدة عمها لى ستكون مسألة عائلية . والحق أننى نويت أن أجاريهما وأرضيهما باظهار الموافقة ثم أعود وأقول لهما أى شىء يعيب قريبة « أبو قرش » .

ذهبت أولا الى الوزارة ، وعلمت أنه قد عين بعض المتقدمين فعلا . فداخلنى اليأس وقلت فى نفسى لابد أن الذين وقع عليهم الاختيار هم من كانت لهم « وساطة » .

وبدت لى ـ فى هذه الحالة اليائسة ـ مسألة زواجى من البنت كما صورها لى أبى ، وتوجهت الى منزل « أبو قرش » .

جلست فى حجرة الاستقبال برهة ، ثم دخلت فتاة عرفت أنهـا « العروسة » جاءت تقدم لى القهوة طبقا للخطة المتفق عليها مع « أم على » ... لابد أنها كانت متجملة .. لم ألتفت لا الى جمالها ولا الى تجملها ... داخلنى احساس غريب أو قل فكرة غريبة نحوها ... انهم يبحثون لها عن عمل .. فهى مثلى طالبة وظيفة .. أليس الزواج وظيفة للفتاة ؟

وقلت فى نفسى : لا بأس ، انها مسكينة مثلى ! وكلانا لا يستطيع الحصول على ما يريد بطريقة طبيعية ..

ولكن ما الطريقة الطبيعية ؟ هل هى كما اعتقدت أن ينال الانسان حقا لانه حقه لا يتفضل عليه به أحد ولا يقتضيه ثمنه ؟ أو هى أية وسيلة توصل كما يريد من حولى أن يقنعونى .. حتى زملائى خريجى الجامعة الذى جروا وراء « الوسايط » واتخذوها سبيلا الى نيل الحقوق !

جرت فى نفسى خواطر كثيرة وأنا أتناول فنجان القهوة من على الصينية الصغيرة التى قدمتها الى « العروسة » وأغض الطرف عن النظر الى وجهها .. كما اعتدنا فى بلدنا عندما نقابل السيدات .. نعم كنت فى الكلية ألتقى بالزميلات وأتبادل معهن الحديث وأنظر فى وجوههن ولا أشعر بأى حرج فى التقاء النظر بالنظر ، ولكن عندما أكون فى منزل ـ ولو فى القاهرة ـ تستبد بى هذه العادة الريفية .

والغريب أنى فكرت فى كل شىء ما عدا أن تكون هذه الفتـــاة زوجتى وأن أفحصها لاتبين كفايتها لهذا الغرض .. فكرت فى موقف عمها « أبو قرش » من زواجها .. ماذا لو كانت ابنته ؟ هل تهون خطبتها الى هذا الحد ؟ هل كان يعرضها على شاب مثلى فقير يبحث عن عمل ؟ ما أضيع الايتام !

ثم دخـــل « مصطفى بك » ورحب بى ، وســـألنى ، وحكيت له حكايتى ، ووعدنى خيرا ، وقال لى « اطمئن يا ابنى » ورنت هذه الكلمة فى أذنى كأنه يقول « يا مشروع صهرى » .

وبرغم حسن استقباله وتوديعه وما أبداه من استعداد للخدمة .. خرجت وأنا أقل رغبة فى اللجوء اليه منى وأنا قاصد الى منزله .

٢٤ من نوفمبر :

جاءت « أم على » وقالت فيما قالت انه يحسن أن نكتب الكتاب .. وكان جوابى أنى لا يمكن أن أبت فى مســـألة الزواج حتى أعرف

مصيرى ... وقد فهمت من ذلك أن الرجل يشترط « الدفع » مقدما .. وهنا أدركت أن زواجى بهذه البنت ان تم فسيكون صـــورة من صــور الرشوة .

ولما قلت لأبى ذلك قال :

ـ انت ماسك لنا كلمة رشوة .. رشوة .. احنا حنعمل ايه .. ما هى الدنيا كلها كده ..

ـ الدنيا كلها كده ازاى ؟ الدنيا كلها مش كده أبدا ..

ـ على كيفك ؟ خليك من غير شغل !

كنت أتمنى أن يكون أبى غير ذلك .. انه هو وأمثاله السبب فى وجود أمثال مصطفى أبو قرش ..

٣٠ من ديسمبر :

ذهبت اليوم الى الكلية لاتسلم شهادة « الليسانس » والغريب ان شعورى قد تبدل . كنت فى الايام الماضية أشعر بالضـــياع وأن حياتى الماضية التى قضيتها فى التعليم على مختلف مراحله كانت عبثـــا فى عبث ، فلم أكتسب فيها أية خبرة عملية تجدى على فى ميدان الحياة .. كلها دروس واستذكارات وامتحانات وسباق للحصول على المجموعات .. ثم لا شىء ! كأنه كان سباقا نحو الضياع !

حاولت فى المدة الماضية ـ بعد أن يئست من الحصول على وظيفة أن أعمل فى الزراعة مع الفلاحين ، فكانوا يسخرون منى بطريقة خفية مهذبة ، يشفقون على يدى الناعمة التى تسلخ من الفأس جـلدها الرقيق .. ويضحكون من كيفية امساكى بها وانثناء رجلى عند ركبتى وأنا أهوى بالفأس على الارض .

كنت أقول لنفسى : ما حصلت عنب الشام ولا عنب اليمن ..

وجئت لآخذ « الليسانس » وأنا أحس أنها شىء لا قيمة له ولكنى لا أملك سواه .. شىء والسلام !

ولما شاهدت الكلية وسرت فى فنائها الرحيب داخلنى شعور مريح، شعور بالامل ، الامل الكبير الذى كنت أشعر به هنا ، انه يعود الى .

وعندما لمحت أستاذنا « الدكتور حسن » أسرعت اليه وسلمت عليه وسألنى عن الحال ، وبرغم تبدل مشـــاعرى وارتياحى رحت أحدثه عن الضياع الذى أعيش فيه وكأننى أرتمى فى أحضان أبوته الروحية التى كان يضفى علينا ظلالها ، بخلاف باقى الاســـاتذة الذين لم نكن نلمس لديهم أى عطف والذين كانوا يلقون المحاضرات ويجرون كأنهم يلقـون أحمالا ثقالا ليتخففوا من أعبائها .

كدت أقول للاستاذ : وهكذا كانت نتيجة أفكارك التى كنت تبثها فى نفسى ..

ولكن نظراته الثابتة الواعية جعلتنى أمسك ، ثم قال لى :

« انت عبيط .. كلنا مررنا بتجربتك ، وهى تجربة قاسية حقا ، ولكنها امتحان للارادة التى تنتصر على مايصادفها من عقبات »

وسكت قليلا قبل أن يقول :

« اسمع ... وكيل الوزارة صديقى ، انه من تلاميذى ، سأكلمه من أجلك » ..

لم أشكره ... وكنت عولت على أن أترك أمر الوظيفة أو تأتى عفوا من غير وساطة أو أى شىء آخر .. ونظر الدكتور حسن الى نظـــرته الثابتة الفاحصة وتابع كلامه قائلا :

« لن يكون فى الامر ما يمس اعتزازك ، فأنا يسرنى اصرارك على أن تنال ماتنال كحق لك لا يتفضل عليك به أحد ، انما سأجده عنك بمـا يرضيك ، فكن مطمئنا » .

سرنى هذا الكلام ، فشكرته .

٩ من يناير :

وصلنى خطاب من مكتب وكيل الوزارة يطلب منى الحضور .. لابد أن الوكيل قد اهتم بى لما كلمه الدكتور حسن . لبست احـــدى (البدلتين) القديمتين اللتين أملكهما . والتى لبستها أحسن حالا من الاخرى ... نعم انها « مقلوبة » ومكان الجيب على يمين الصدر ظاهر .. وكواء البلد لم يستطع التغلب على كرمشة ياقتها ، وهذه الكرافتـة اللعينة كانت ربطتها جيدة وهى جديدة ولكنها الآن مبرومة وعقدتهـــا لا تستقر على ياقة القميص ، والقميص هو أيضا به بعض الثقوب مما يلى الياقة ، ولكن الجاكتة تغطيها .

لا بأس بذلك كله ، فأنا لست ذاهبا الى موعد غرام ، ووكيل الوزارة لابد أخذ عنى فكرة طيبة ، والمظهر لا يهم .. وسأقدم اليه هذه النسخة من كتابى الذى ألفته وطبعته وأنا طالب ، وسيكون هذا مدعاة لتقديره اياى .. نعم يا دكتور حسن سأشرفك وأثبت أنى أستحق تقديمك لى عند الوكيل .

١٠ من يناير :

ذهبت الى مكتب وكيل الوزارة وأنا أدير فى نفسى كثيرا مما ينبغى أن أكون عليه فى مقابلة الوكيل وما يحسن أن أقوله ، وأحضر اجابات لما أتوقعه من أسئلة . وقد اشتط خيالى فى ذلك الى درجة ضحكت أنا نفسى منها .. تخيلت فيما تخيلت أنه سيعبر لى عن الاسف لاهمال طلبى كل هذه المدة وأن الوزارة رأت لذلك ، وتقديرا لشخصى ومثـــلى التى حدثه عنها الدكتور حسن .. أن تسند الى عملا ذا مسئولية كبيرة يحتاج الى دم جديد من الشباب الحر الابى ..

نهايته ... دخلت على الوكيل ، وكان استقبـــاله لى لا بأس به وقدمت اليه الكتاب ، فنظر اليه وقرأ الاهداء وهو يشـــــير الى بالجلوس ، فجلست وقد تركز انتباهى كله على ما أتوقع من اهتمامه بالكتاب ، وكانت

أول صدمة لاحساسى أن وضعه على جانب المكتب بطريقة لم أشعر فيهـــا بأى تقدير ، بل خيل الى أنه سيرميه فى السلة بعد خروجى !

.... وتبدد انتباهى ، فلم أع كل كلامه ، ورددت عليه بصوت خيل الى أن شخصا آخر ينطق به ، كان حلقى جافا والاشياء غير واضحة أمام بصرى ..

وبطبيعة الحال لم يقل لى أى شىء مما توقعته .. ورنت فى اذنى الجملة الاخيرة التى أنهى بها الموقف ..

« احنا حنعينك عشان خاطر الدكتور حسن .. سلم عليه .. »

عشان خاطر الدكتور حسن !

هكذا يقول ...

كنت أريد أن أجعل لهذا الرجل مكانة فى نفسى ..

وخرجت من عنده والأصداء فى داخلى تتجاوب :

ـ عشان خاطر الدكتور حسن ...!!

ـ أيوه ...

ـ خاطر الدكتور حسن بس !

ـ أيوه ... أمال انت فاكر ايه ؟

ـ ولا حاجة ... بس ...

ـ مفيش بس ... ولا غيره ... عاجبك ولا مش عاجبك ..

وقبلت الوظيفة .. قبلتها والسلام ..

عايد وعايده



عايد وعايدة

دخل الدكتور عايد قسم النساء فى مستشفى الامراض الصدرية بغزة ، ليمر بالمريضات ويتفقد أحوالهن ، ووقع نظره على فتاة مريضة شاحبة الوجه ككل المريضات هناك • ولكن هذا الوجه ـ وجه هذه الفتاة ـ أثار انتباهه ، لا لأنه يدل على خطورة حالتها ، فأكثر من فى المستشفى فى حالات ميئوس منها ، بل لأنه رآه قبل ذلك ، ولكن أين ومتى وكيف ؟ •

نظر فى ورقة علاجها فرأى اسمها « فدوى » •• والاسم أيضا ليس غريبا عن ذاكرته •• أتكون قريبة له •• من أهله فى يافا الذين نجوا من وحشية اليهود وتشتتوا فى البلاد وتوزعوا على الخيام فى العراء ؟ ان أهل فلسطين يعتقدون أن الاقارب حينما يلتقون يعرف بعضهم بعضا وان لم يكونوا قد التقوا من قبل ، لان الدماء تتعارف والدم لا ينقلب ماء ••

ولكن شعوره نحوها يختلف ، وقلبه يخفق لمرآها كأنه يريد أن يذكره بأشياء بعيدة ـ ويعيد اليه صورا كانت كالبرق وسط الظلام ، قال لها :

ـ هل تعرفينني ؟

أنعمت فيه النظر ، فظهرت على ملامحها الدهشة والسرور والخشية من أن يكون شخصا آخر •• وقالت :

ـ ألست « عابد » ؟

نعم ، هو عابد وهى فدوى ، الصبيان اللذان التقيا أول مرة منذ اثنى عشر عاما فى ابان المحنة • كان فى خيمة بالقرب من غزة مع عمه

الجريح وزوجة عمه التى قتل اليهـــود ولدها الوحيـــد ، وكانت هى « فدوى » فى خيمة مجاورة مع أمها وأخيها الطفل وقد ذهب أبوها فيمن ذهبوا •

***

كان قد قضى أول ليلة فى الخيمة لا ينسى هولها •• لا يعرف ان كان قد نام متكوما فى ركن الخيمة على الثرى بعد الفراش الوثير ، أم كان سابحا فى بركة من الدم تخوض به فيها أحلامه المزعجة وهى تصور له أشباح الحادث الذى قتل فيه والداه •• أشباح الجنـــود اليهـــود وهم يقتحمون دارهم ويحاولون الاعتداء على والدته ، وشبح والده وهو يقف لهم دونها حتى يصرعوه •• وشـــبح الام وهى تستميت فى الدفاع عن شرفها ، ثم تصرع •• وفر هو منطويا على حقد كبير وعزم على الثأر لا يخمد ، ولم يذهب من نفسه أبدا أنه سيعود اليهم يوما ما ••

وفى الصباح رأى خيمة تدق أوتادها بجوار خيمتهم ، والى جانبها امرأة مذهولة تعمل بيد مرتعشة فى ربط الحبال ، وطفل زائغ النظرات تبحث عيناه عن أبيه فى يأس قاتل ، وبنت فى مثل عمره ــ عمر عابد ــ تلبس الجلباب الابيض الذى كانت به فى المستشفى ، واستطاعت أن تنجو به نقيا من الدم الذى كان يطلبه فيها جنود العصابات الصهيونية فى أثنـاء مذبحة « دير ياسين » • كلهم ينظرون الى ما حولهم ، وقد جمدت الدموع فى أعينهم ، ولا تزال قلوبهم مشدودة الى ديارهم التى كانوا فيها كما تشد هذه الخيمة الى أوتادها برغم الرياح العاصفة التى تريد أن تقتلعها ••

كانت البنت هى « فدوى » رآها فى ذلك الصباح ناحلة شاحبة كما هى الآن ، وقد شعر من أول وهلة كأنه مسئول عنها ، وعندما كانت تحكى له فى أوقات انفرادهما حكاية هربها من ذئاب اليهود وهى فى النقاهة من الحمى بالمستشفى ، كان ذلك الشعور يزداد ، وكان يقول لها : لابد من يوم نعود فيه الى البلاد ••

وكانت الاوقات التى يقضيها معها ، يلعبان ويتحدثان ، هى الاوقات

الوحيدة التى يشعر فيها بطعم لحياته البائسة العابسة ، وكانت أحلام يقظته أن يعود الى بلده وينتقم لوالديه ومواطنيه ، وسلوى الى جانبه تشـــاهد بطولته وتعجب به ..

مرت هذه الصورة بذهن الطبيب الشاب ، وهو ينظر الى المريضة التى تسأله : « ألست عابد ؟ » فقال لها :

ـ نعم يا فدوى أنا عابد وان كان اسمى قد زاد نقطة فصار « عايد »

ـ عايد الى البلاد ان شاء الله ... وأنا ...؟

قالت ذلك وتذكرت أمها وشقيقها الصغير ، اللذين تركتهما بمعسكر اللاجئين فى خان يونس يعيشان فى جحر هناك كالجرذان .. يذهبـــان كل بضعة أيام الى مكتب اغاثة اللاجئين لكى يلتقطا حفنـــة من الدقيق وقطرات من الزيت ، فاذا مر شهر أخذا صابونتين من أردأ الصابون .. تذكرت ذلك فاغرورقت عيناها .. فابتدرها قائلا :

ـ وأنت .. عايدة .. كلنا عائدون ..

ـ اذا شفيت وعشت ..

ـ ستشفين وتعيشين باذن الله ..

ـ أريد أن أرجع الى البلاد وأموت هناك ..

وتابع الدكتور مروره ببقية المريضات فى عنبر النساء ، فلما وصل الى عجوز تكومت فى الفراش كأنها مجموعة من العظام النخرة .. تهلل وجهها وهى تقول له : سمعتك تقول يا ولدى اننا جميعا عائدون .. أنا أريد أن أدفن فى بلدى .. فطيب خاطرها ، وانتقل الى غيرها ، ثم عاد الى فدوى وأخذ كرسيا وجلس بجوارها ، وهو يقول لها :

ـ ألا تزالين تشكين فى أنك ستشفين وتعودين ؟

ـ انك تقوى فى نفسى الامل كما كنت .. كنت تقول دائما : لابد من العودة ، هل تذكر ؟

ونظرت اليه نظرة صافية منكسرة ، هى النظرة الحلوة نفسها التى كانت تسعده وتبعث فيه الامل •• وان كانت قد زادت عمقا وتضاءل أو ذهب ما كان فيها من المرح الذى يلازم الطفولة واليفاعة ولو كانت الحياة بائسة •

وخفق قلبه كما كان يخفق فى تلك الأيام ، وأجابها :

ـ لم أنس قط ولن أنسى أبدا •

وحكى لها قصة كفاحه من أجل العودة ، وأنه وجد خير سبيل اليها أن يتسلح بالعلم ، فجد فى هذا السبيل برعاية عمه الذى رحل الى مصر وزاول فيها تجارة صغيرة ، وبفضل الرعاية التى أسبغتها الحكومة المصرية على أبناء فلسطين فى المدارس والجامعات ، وكان يتصور دائما أن أى تقصير فى الدراسة أو اخفاق فى امتحان معناه النكوص أو الهزيمة فى المعركة •• استمر فى دراسته حتى تخرج فى كلية الطب بجامعة القاهرة •• وكانت أمامه فرص الوظيفة والعمل والحياة العادية فى أى بلد من بلاد الجمهورية العربية المتحدة ، ولكنه نذر نفسه للعودة ، فلم يحد عن الخطة التى رسمها ، فجاء هنا لخدمة مواطنية وليعيش بين العائدين ، قريبا من معركة الموت على الحدود الوهمية •• أو الحياة فى البلاد ••

ونظرت اليه نظرتها الصافية التى كانت تجذبه اليها ويرى فى بريقها الامل ، وابتسمت له ، ثم أغضت وحولت نظراتها الى النافذة التى كانت تبعث اليهما بأشعة رقيقة من شمس الصباح ، وبنسمات تحمل عبيرا من زهر البرتقال فى « البيارات » المنتظرة خلف الخط الوهوم ترتعد فى أيدى اللصوص ••

***

كانت فدوى قد أنهكها المرض ، وكانت الحياة فى نظرها مظلمة ، وان كان طيف الفتى « عايد » يراودها أحيانا فى خلال السنين الطويلة التى اختفى فيها عن أنظارها ، وها هى ذى الآن تراه شابا طبيبا مرموقا ،

يرق لها ويعطف عليها ، ويستعيد معها ذكريات الماضى •• ولكن هل •• يحبها •• ؟

لقد كانت علاقتهما فى الماضى أشـــبه بلعب الاطفال ، كانا صبيين متقاربين فى السن يدنوان من الخامسة عشرة • ولم يتعــد الامر بينهما المرح الذى كانا ينفسان به عما فى حياتهما من شقاء ، والحديث الحلو عن الحوادث الاليمة المرة التى لابست تشتيتهما مع بعض أهليهم ومواطنيهم من بلادهم • وكان يقوى أملها فى العودة الى البلاد بما يبديه من عـــزم واصرار ، وكانت تتخيل نفسها دائما راكبة وراءه على ظهر جواد يعدو بهما الى الشمال ••

وها هو ذا الآن لا يزال البطل المصر •• الحانى عليها •• تلتقى به أخيرا ، فما أسعدها به •• ولكنها هى محطمة كاد يقتلها المرض واليأس من الحياة ، ومع ذلك تحس بحلم العذراء نحو فارســـها ، فهل يكون لها ؟!

ولكن أين هى ؟ وهل ستعيش ؟! هل يتركها المرض الخبيث ؟ ولم لا •• أليس فارسها هو طبيبها ؟•

غادر الدكتور عايد عنبر النســـاء فى المستشفى ، وترك فدوى فى أحلامها ، وانتزع نفسه من ذكريات الصـــبا ، وقد أثارت حالة فدوى المرضية والنفسية فى فكره موضوعا يستوجب البحث والتدبير ، هؤلاء المرضى الذين لا يعلمون متى يشفون ومتى يعودون الى الحياة خـــارج المستشفى ، هل يتركون هكذا لليأس •• ؟ لماذا لا يعملون شيئا ؟ لماذا لا يقضى كل منهم وقته فى عمل أى شىء يناسبه أو تعلم عمل يشغله عن التفكير فى مرضه ويشعره بأنه ينتج ويشارك فى الحياة ؟ ••

لابد من العمل ••

ان الكتائب الفلسطينية التى يذهب اليها ويتدرب معهـــا فى أوقات معينة تعمل للعودة وتخليص البلاد من جرائيم المغتصبين ، ولا يركنون الى القعود معتمدين على كفاح الزعماء والقادة السياسيين • فلماذا لا يعمل

المرضى فى كفاح الجراثيم التى تحتل صدورهم ولا يلقون العبء كله على علاج الاطباء ..؟

وبعد أسابيع كانت المزحة اللطيفة الداعية الى مزيج من الدهشة والاعجاب ... أن الدكتور عايد حول المستشفى الى مشغل .. وصار يدخل الى المرضى لا ليكشف عليهم ويقرر لهم الادوية فقط ، بل صار يلاحظ أعمالهم ويرقب ما يبدو على وجوههم من سمات حيوية تحل محل سحب اليأس التى كانت تخيم عليها .

وتبدلت نغمات اليأس ونبرات الحزن وسكون الموت فى أنحاء المستشفى الى حركة واستبشار وحماسة ، وما كان أسعد الدكتور عايد وهو يستمع الى المرضى من الرجل والشباب يرفعون أصواتهم بالاهازيج الوطنية فيقسمون بدماء الشهداء وبجوع ذويهم فى العراء أنه :

لابد من الجولة الثانية تحت قيادة عبد الناصر

واقترب الدكتور عايد من عنبر النساء . فترامت الى سمعه أصواتهن الناعمة تردد :

« امتى تعود يا وطنى الغالى » ..

وخفق قلبه وهو يتصور « فدوى » تغنى بينهن .. ودخل العنبر وهو يتعمد ألا ينظر فى أول دخوله الى فدوى عملا بقول الشاعر العربى :

اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكى يعلموا أن الهوى حيث تنظر

ومر بالمريضات الاخريات يتفقد حالاتهن ويبدى ملاحظاته واعجابه بالمفارش البيضاء التى يطرزنها ويوقعن على غرز الابر فى نسيجها أهازيجهن الحلوة ، ولم تبد له العجوز رغبتها فى أن تدفن فى بلدها .. بل قالت له :

ــ امتى نعود للوطن يا ولدى ..؟

فرد عليها وهو يتجه أخيرا الى فدوى :

ـ قريبا يا خالة ..

ثم قال فى صوت رقيق وقد وصل الى سرير فدوى :

ـ صباح الخير يا فدوى ..

ـ صباح النور يا ...

وسكتت متوقفة لان لسانها أراد أن يقول بحكم العادة القديمة : « يا عايد » فأكمل لها الدكتور عايد قائلا :

ـ عايد .. عايد ..

فقالت فى شبه همس ودلال :

ـ وحدك ..؟

ـ لا .. عايد ومعى عايدة ..

ـ ومن هى عايدة ؟!

ـ أنت .. ما رأيك فى هذا الاسم .. عايدة ؟ فليكن اسمك من الآن عايدة ..

وخشيت « عايدة » أن تفضح نظراتها مكنون قلبها .. فحولت طرفها نحو النافذة التى كانت تبعث اليها بأشعة رقيقة من شمس الصباح ، وبنسمات تحمل عبيرا من زهر البرتقال آتية من الشمال عبر الحدود ..

الدكاترة

الدكاتـــره

ـ الو .. أنا الدكتور حامد .. بعد ربع ساعة أكون عندكم ..

وضع الدكتور حامد سماعة التليفون وأعد حقيبته الصغيرة ، ونزل وهو يقول لزينب :

ـ أنا رايح للمريض اللى فى شارع نور الظلام ..

ـ مع السلامة يادكتور . قالتها زينب بصوتها الرقيق الحالم ولهجتها التى لاتدل على أصلها الريفى ، وهى تنظر اليه ـ كما تفعل دائما ـ بعينين نافذتين فيهما حنان متماسك غير ذائب .. كأنها تروضه بهما على أن يكون حيوانا أليفا ..

تعمل زينب مع الدكتور كممرضة وسكرتيرة ، وهى تمت اليه بقرابة بعيدة من النوع الذى لايتذكره ويحتفظ بعلاقاته الا أهل القرى . كان أبو زينب فقيرا ، ومات ، وأمها تزوجت بعده ، أما هى فقد جىء بهـــا الى « أقاربها » فى القاهرة لتعيش معهم ، وكانت فى العاشرة من عمرها ،تعلمت أربع سنوات بمدرسة القرية ، وكانت تطمع أن تواصل تعليمها بالقـاهرة ولكن حالت دون ذلك اسباب ...

* * *

قالت أم الدكتور حـــامد : « ان زينب ستكون معهم فردا من الأسرة ولكنها فى صميم نفسها قالت : « آهى تنفع بدل خدامة » ..

ولم تجد زينب بدا من مواجهة الأمر الواقع ، فان معاملة « أقاربها » لها وان كانت تخلو من كلمة « خادمة » ومن امتهان الخدم ، الا أن تكليفها فى الوقت نفسه باعمال الخدمة ، وتحرز الاسرة أمام الناس من ذكر قرابتها لهم ، جعلاها تدرك وضعها الحقيقى الوسط بين الخادمة وفرد من الاسرة

.. ولم تذكر أمام احد من أصدقائهم ومعارفهم وجيرانهم شيئا عن قرابتها، حتى لا تثير غضب الست الكبيرة ..

واستطاعت زينب أن تكون شيئا هاما فى حياة « قريبها » حامد الذى كان طالبا فى كلية الطب عند حضورها اليهم من القرية ، كانت ترتب له أدواته وكتبه ، وتسهر قريبا منه وهو يقضى معظم الليل فى دراسته ، تلبى طلباته وتعمل له الشاى ..

وراحت زينب تعـــوض ما فاتها من التعليم المدرسى بقراءة كل ما تستطيع قراءته من كتب ومجلات ، وتتابع كل ماتراه وما تسمعه بفهم دقيق واحساس مرهف ..

وكبرت زينب ، وعندما أفاق حامد من امتحانات الطب التفت فجأة الى الفتاة الناضجة .. التى يعاملها معاملة وسطا بين الاخت والخـــادمة ، وأراد الحيوان الكائن فى جسده أن يلتهم الجانب الاخوى من نفسه كى يفسح له طريق الافتراس .. ولكن زينب نظرت اليـــه نظرة تنطـــق بالاستنكار ، وقصت عليه قصة بنت فى القرية خـــدعت ، وعرف أمرها ، وذبحها أخوها ..

ـ ذبحها ؟!

قالها مندهشا وبان عليه أن الحيوان تضاءل فى نفسه ، فشعرت بالامن وقالت مؤكدة :

ـ أيوه دبحها زى ما يدبح الجزار النعجة .. وجاء الدكتور بتاع المركز وقطع جتتها حتت !

اعتاد حامد منظر الجثث وتقطيع أجزائها ، وصار ذلك لايثير فى نفسه اى احساس غير عادى ، ولكن زينب استطاعت بطريقة حديثها ، وما بثته فى كلماتها من شحنات معبرة أن تصور الجثة المقطعة أمامه فى صورة مفزعة أثارت فى نفسه احاسيس الانسان العادى !

وفى أوقات متباعدة كان الحيوان يحاول أن يتوثب فى جسد حامد،

ولكن زينب كانت فى كل مرة تخيفه بمنظر الجثة المقطعة .. فيتضاءل الحيوان وينزوى ..

واستمرت زينب فى حياة الدكتور حامد شيئا هاما ، وعرفت - لقربها منه - كثيرا من المعلومات الطبية ، وأسماء الامراض والادوية وطرق العلاج ، وكان يستشيرها زبائن العيادة وغيرهم ممن لايستطيعون ، اولا يريدون ، أن يدفعوا كشف الدكتور .. وصاروا يخاطبونها : يادكتورة .. ويتحدثون عنها بالدكتورة زينب ، وصار هذا اللقب يشعرها بالاهمية ويزيل من نفسها بعض احساسها بضعف الاعتبار الاجتماعى فى الوسط الذى تعيش فيه .

* * *

وفى هذا اليوم الذى نزل فيه الدكتور حامد ليذهب الى مريض فى شارع نور الظلام - كانت هناك مشكلة شغلت تفكيره ، كما شغلت زينب ، لانها تتعلق بمصيرها ، فقد جاء من البلد ابن عمها « مختار » ليخطبها .. وهو من أعيان البلد ومن أصحاب الاملاك فيها .

وسكتت زينب ولم يبد عليها ما يدل على القبول أو الرفض ، ان مختار شاب متمدين على الطريقة الريفية ، وهو على درجة متوسطة من التعليم .. يتأنق فى لبسه القروى ، ويقرأ الصحف ، وعنده راديوبالبطارية، ويتتبع الاحداث القومية ويفهم المسائل العامة الى درجة ما .. انه سيجعلها فى طبقة عالية بالقرية .. وستكون هناك سيدة مرموقة .. ولكنها قد تشربت روح القاهرة .. وتعودت فيها حياة تختلف عن الحياة فى الريف ، ستكون هناك من جملة « الحريم » ..

والأهم من ذلك عاطفتها .. حبها لحامد .. انها عاطفة مسكينة صامتة ذليلة لاتستطيع الظهور .. ولو أن هذه العاطفة كانت نحو مختار لوقفت على ساقيها ورفعت رأسها ..

ركب الدكتور حامد سيارته وهو مشغول البال ، لا تبرح زينب خياله ، انه يراها - وهو يقود سيارته - بقامتها الرشيقة فى معطفها الابيض

الناصع ، وملامحها الدقيقة المعبرة الحزينة الجميلة ، ونظراتها المنكسرة التى تقول له دائما مالا تقوله بلسانها .. هل يحبها ؟ لايريد أن يصارح نفسه .. ان عاطفته هو أيضا مسكينة ، ولكن مسكنتها من نوع آخر .. يمنعها الترفع من الظهور ، انه ترفع يفرضه عليه المجتمع ، يريد هذا المجتمع أن يتزوج من « سميرة » التى تخرجت فى الجامعة ولا يكاد حديثها يخرج عن الافلام التافهة والحفلات والازياء والمودات . ولا تكاد أمانيها تتعلق الا بأشياء مثل السيارة الفاخرة التى تشير عليه أن يستبدلها بسيارته الصغيرة القديمة التى لاتليق .. كما تقول ..

أحيانا يقول فى نفسه : ان زينب التى لم تتعلم فى الجامعة أرقى ثقافة من سميرة ، واهتماماتهما تختلف ، زينب تعمل وتنمى عمله وتعنى بأهدافه، وسميرة تهتم بالتفاهات ولا تزيد عن مستهلكة للكماليات . ثم ينتبه فجأة كأنه ضبط نفسه يفكر فى زينب على نحو لاينبغى لمثله .. كيف يفكر فيها كأنه يريد أن يشاركها فى حياته ؟ « وافرض أنى أحبها ، ولكن الزواج شىء آخر .. انها تليق لمختار » ..

يعبر مختار خياله بقامته المنتصبة وجلبابه الصوفى المكوى يبدو منه على الصدر العريض صديرى شاهى تلمع صفحته وتبرق أزراره ، يبدو كأنه يركب فرسا .. يريد أن يختطف زينب .. منه ؟؟

« فليذهب الجميع .. حتى سميرة .. انها تافهة مغـرورة .. وأنا لست فاضيا لها ، ولا داعى للزواج » .

* * *

وصلت خواطره الى هذا عندما وقف بسيارته حذاء بوابة أثرية كبيرة على رأس ممر ضيق مظلم يفضى الى شقة المريض .. هبـط من السيارة ولاحت منه التفاتة الى دكان بجوار البوابة مكتوب أعلاه « دكتور الجزم » يجلس على عتبته رجل يعمل فى اصلاح الاحذية يلبس مريلة بيضاء أو أصلها أبيض .. رآه يفحص حذاء وصاحب الحذاء يقف الى جانبه ينتظر نتيجة الفحص .. سمعه يقول له وعينه على الحذاء .

ـ الجزمة دى تعبانه أوى ..

« والله عال ! دكتور جزم ! يعنى اختصاصى مثل .. دكتور أطفال .. دكتور باطنى ، دكتور اسنان .. ولم لا ؟ أليس يعالج الاحذية ؟ .. والحذاء الذى يكشف عليه مريض جدا فى حالة خطرة ! كيف سكت عليه صاحبه حتى صار الى هذه الحال ؟ تماما كما نقول نحن لمرضانا .. هؤلاء الناس الجهلاء .. لا .. انهم مساكين .. ينتظر المريض منهم لعله يشفى من تلقاء نفسه دون أن يتكلف أجر العلاج ، ولكن المرض يزداد حتى لايجد أخيرا مفرا من الذهاب الى الطبيب . وصاحب هذا الحذاء كذلك ، لابد أنه قال فى نفسه : انه فتق صغير يمكن أن يصرف عنه النظر الآن ، ولكنه يتسع وتنضم اليه بقية الاجزاء .. وأخيرا يضطر الى أن يلجأ الى .. دكتور الجزم » !

وعبر الدكتور حامد الممر الضيق المظلم ، وصعد على درجات من رخام أثرية مكسرة ، واقترب من البسطة التى أمام باب الشـقة ، فرأى « سمكرى » والى جانبه أدواته قد أخرجها من صندوق خشبى داكن اللون يشبه فى شكله ولونه حقيبته .. حقيبة الدكتور ! وأمامه وابور الجاز ..

« عجيبة ! وهذا دكتور آخر .. يعـالج الوابور .. يظهر انه لم يكشف عليه بعد » ..

وسمع امرأة تقول من الداخل بصوت عال :

ـ صلحه كويس يااسطى ، مش تخليه يولع قدامك ، وتمشى من هنا وهو يطفى .. زى مابتعمل كل مرة ..

دخل الدكتور الى المريض ، ورآه فى نوبة فواق (زغطة) لايكاد يأخذ نفسه حتى يهاجمه الفواق بعنف .. وتراءى للدكتور منظر وابور الجاز تعلو شعلته وتنخفض ثم تعلو وتنخفض .. يحتاج الى جاز .. انه يشحط .. كأنه فى نوبة فواق ..

أعطى المريض حقنة مسكنة .. فسكت عنه الفواق ، وقالت له زوجة المريض فى ضراعة :

ـ كتر خيرك يادكتور ، والنبى دا بقالو على كده يجى ساعتين .. اعمل معروف اكتب لو على دوا كويس وما يكنش غالى .. الحال زى ما أنت عارف ..

وكتب الدكتور الروشتة .. وأخرجت الزوجة من صدرها ورقة بجنيه وقدمتها له ، فأخذها وجمع أدواته ووضعها فى الحقيبة وأغلقها ثم أخذها بيده وخرج ، فوجد السمكرى لايزال يفترش أدواته أمام الباب ، والوابور يعلو صوته فى وهج أزرق ..

فشخط فيه :

ـ لم ياراجل الحاجات دى .. خلينى أفوت ..

ـ حاضر يابيه ، أهو .. اتفضل وهبط على السلم وهو يتخيل الزوجة تقول له فى صراحة :

ـ عالجه كويس يادكتور ، مش تديلو الحقنة وتسكت الزغطة ، وتمشى من هنا وهى ترجع له تانى !

والسمكرى .. كأنه هو الآخر يقول له :

ـ كله شغل .. آه .. أنا أصلح الوابور زى ما تصلح انت البنى آدم .. بس أنا بالكتير آخذ شلن .. وانت تلهف جنيه ..

ركب الدكتور حامد سيارته وهو فى دوامة من الافكار والمشاعر المختلطة .. دكتور الجزم المعتز بصناعته ، والسمكرى الذى خيل اليه أنه يحتج لانه شخط فيه وهو يؤدى عمله ، والاسرة الفقيرة التى تقتطع من قوتها لعلاج عائلها .. واستراحت نفسه بعض الشىء لانه خفض لها أجر الكشف فى المنزل من جنيهين الى جنيه واحد .. هل هؤلاء من طينة أخرى غير طينة « الزباين » الاغنياء الذين يأتون اليه وليس بهم الا توهم المرض وتزداد ثقتهم به كلما كتب لهم على أدوية مرتفعة الثمن !

وتذكر مشكلته العاطفية وما يختلط بها من اعتبار للفوارق الاجتماعية، فأحس بقلبه ينبض نحو زينب .. وتصور سميرة وتعاليها وتفاهة اهتماماتها،

وشعر بألفته لهذه السيارة الصغيرة وبأنه لايحب أن يفرط فيها •• مالها ؟ ماشيه عال ومريحة •• فلماذا يغيرها ؟

* * *

ووجد نفسه يقود السيارة نحو شارع الصاغة ، وقضى هنـــاك وقتا قصيرا عاد بعده مسرعا الى العيادة ، وأشار الى زينب أن تتبعه الى الحجرة التى تجمع بين المكتب وأدوات الكشف •

ـ هيه •• مختار فين دلوقت ! قال ذلك وهو يخرج من جيبه علبة صغيرة أنيقة ، فنظرت اليه وهى تشعر بأن ثمة شيئا غير عادى ، وقالت :

ـ مختار فى الاستراحة جا هنا وقال انه عيان وعايزاك تكشف عليه

ـ الا •• انت قلتيلوا ايه ؟

ـ فى ايه ؟

ـ فى مسألة الجواز ••

ـ مفيش حاجة ••

سكت قليلا ، ثم قال لها وهو يخرج من العلبة خاتما ذهبيا :

ـ ايه رأيك فى ده ؟

ـ مش فاهمه !

ـ اذا كنت موافقة ادينى ايدك وأعطت له يدها وقلبها يرقص وخداها يتوردان ، فوضع الخاتم فى أصبعها ، ولبس الخاتم الآخر •

ولما دخل مختار لاحظ زينب فتضايق ، اذ رآها تشيح عنه بوجههـا المتورد حتى لاتتقابل نظراتهما ••

وأدرك مختار أن فى الجو شيئا ، ولمح خاتما فى يد زينب وآخر فى يد الدكتور حامد •• فتمالك نفسه وقال وهو يجاهد ليظهر السرور :

ـ مبروك يادكتور •• مبروك يادكتورة •••


أبو شنب

ابو شنب

أنا شاب متطلع الى مستقبل أحقق فيه ما أصبوا اليه ، وقد عرفت فى نفسى الميل الى الصحافة ، فاتجهت الى الدراسة الخاصة بها فى الجـامعة وتخرجت ، وهأنذا أرتطم بالاشواك التى طالما قالوا لنا ان الصحافة محفوفة بها • على اننى لم أكن أتوقع أن تتمثل لى هذه الاشواك فى « شارب » •• هو شارب الرجل الذى جاءت قسمتى معه ، وقد سميته فيما بينى وبـين نفسى « ابو شنب » •

كان يحدثنى وعينى دائما على شاربه •• شـارب طويل يمتد على الشفة العليا ويتدلى طرفاه على فم واسع فى شبه قوسين كبيرين ، وهـو لايضحك الا قليلا ، على أنك لاتعرف ان كان يضحك أو لايضحك ،فكثيرا ماتنحسر الشفة العليا بما فوقها من شـعر كث عن أسنان كبيرة ، ولا يبدو على ملامحه أى بصيص يدل على ضحك •• شىء واحد يستريح اليـه النظر ، هو شعره الأسود الناعم الفاحم برغم مجاوزته الخمسين من عمره ، شعر جميل فى ذاته ، ولكن موقعه على رأس صغيره وطغيان حافته الامامية على جبهته وانتهاء حافته الخلفية على قفا قصير لايتناسب مع طول الجسـم وان كان عرضه يتفق مع امتلاء عام ، هذا الموقع يضيع جمال الشعر ويجعله أشبه بشعر مستعار •

على أن نظراتى كانت تعبر كل ذلك عبرا وتستقر على شاربه ، يحدثنى حديثا معادا ويحكى لى أشياء طالما حكاها ، يحدثنى عن مبادئه وصـدى مقالاته واعجاب الشخصيات الكبيرة به وصلاته الوثيقة بها ، ولا ينسى أن يعرب لى عن عطفه على ومودته لى ، لامن أجل الاستاذ الكبير « س » الذى أوصاه بى ـ لا من اجله فقط ، بل كذلك من أجل شخصى الذى يتوسم فيه أنه ابن حلال و « يىجى منه » ولا يفوته أن يذكر ولاءه واخلاصـه

للاستاذ « س » صاحب الفضل الاكبر وأستاذ الجميع ، ويسألنى : « أنت بتقابله ؟ » فأجيب اجابة عائمة مثل « أحيانا أراه » فالاستاذ « س » رئيس تحرير الجريدة التى نحن بها ، وقد توسط لى عنده صديق له كى يلحقنى بالعمل فى الجريدة .

ويحكى لى « أبو شنب » حكاية جده الاكبر الذى كان ضابطا فى جيش عرابى ، ناسيا أنه حكاها لى مرارا ، ولعله ليس ناسيا وانما يريد أن يتلذذ بتكرارها . ويبدو على ملامحه وفمه بصفة خاصة أن غدد لعابه نشطت وهو يحدثنى كيف كان ذلك الجد العظيم يأكل الخروف الأوزى وحده .. فاذا أراد أن يتناول شيئا خفيفا قبل أن ينام « أزأز » زوجا من الحمام ..

ويرتفع القوس الايمن الذى يصنعه طرف شاربه ، وينفرج هذا الجانب من فمه عن ناب طويل اصفر ، بقصد الابتسام .. وهو يردف قائلا : « هو احنا دالوقت بناكل يا أستاذ ! طب أنا امبارح ماقدرتش أخلص وقة السمك ! » .

كل ذلك وأنا سارح تلتقط أذنى بعض كلامه وتصد عن البعض وخاصة ما يكرره ويعيده .. وخلال ذلك أفكر فى أشياء كثيرة مثل حالتى فى هذه الجريدة التى أتمرن فيها مع « ابو شنب » ولم يتقرر لى مرتب حتى الآن ، ولكن نظراتى لا تتحول عن شارب صاحبنا ، وهو على فكرة ، رئيس القسم الذى نعمل به ، ويكتب مقالات كما يكتب كبار الكتاب فى الجريدة .

يخيل الى أن عينى تقوم برحلة تبدأ بطرف شاربه الايمن وتنتهى بالطرف الايسر ، وأتمنى أن يكون بيدى مقص أو موسى لكى أقصر هذا الطرف المتدلى على جانب الفم أو ذاك أو أزيله .. لانه يقف أو يتدلى - كما يبدو لى - حائلا دون أشياء كثيرة .. دون أن أفهم كلامه عن الادب والفن وعن أدباء هذه الايام وكتاباتهم .. « وفين مقالات عبد العزيز البشرى والزيات والرافعى .. وهو بقى فيه ادب ياأستاذ .. » ودون أن

أعى ارشاداته فى العمل التى لايمل من تكرارها والتى كان لها الفضل فى تكوين وتخريج فلان الصحفى اللامع الذى صار رئيس تحرير جريدة كذا •• ودون أن ألم بأمجاد الجد وبلائه فى الحروب وفى •• الطعام !

بل كان ذلك الشارب يتمثل لى وأنا أتصفح مقالات صاحبه •• اذا حاولت أن أعرف ماذا يريد أن يقول فيها وقف لى شاربه أو تدلى حائلا دون أن أدرك له غرضا يرمى اليه ، فهو كلام مرصوص تقف كل جملة وكل فقرة منه وراء الاخرى فى يأس •• كطابور يقف أمام شباك تذاكر لقطار حجزت كل مقاعده ••

وهو ـ أى الشارب ـ يقف ماثلا أمامى كلما فكرت وتساءلت فيما بينى وبين نفسى لماذا لم يشتهر هذا « الكاتب » أو يأخذ اعتبارا بين الكتاب الذين لهم قراء يتابعون كتاباتهم ويطلبونهم اذا غابوا ـ برغم كثرة كتابته ودوام نشر اسمه فى مقدمة مقال كبير أو فى ذيل كلمة صغيرة •

ـ يمثل أمامى شاربه كأنه المسئول عن ذلك ، وكأنه علامة استفهام مقلوبة ••

وأكثر من ذلك يخيل الى ـ كلما فكرت فى حالتى ـ أن ذلك الشارب هو العقبة التى تحول دون تعيين مرتب لى فى الجريدة ••

آه لو يقص هذا القوس •• وذاك •• فيبدو الشارب مستقيما لاعوج فيه •• لابد اذن ـ كما يخيل لى ـ أن الامور تستقيم وتسير فى مجراها الطبيعى ، فيعين لى مرتب لقاء عملى ، وان كنت أشك فى أن مقالاته ستفهم وتجتذب اليها قراء ولو حلق شاربه •• ولكن لماذا يظل يكتبها اذا استقامت الامور •• ؟ •

على أنه لم يكن يعنينى أن يكتب « أبو شنب » تلك المقالات أو لايكتبها بقدر ما يعنينى حالى أنا ، على خلاف ما يهتم به زميلى « خليل » الذى سبقنى فى الصحافة بسنوات ، والذى يعمل فى الجريدة « بالقطعة » وكثيرا ما يعاكسه أبو شنب فيعمل على تعطيل تحقيق أو حديث صحفى قام به فلا

ينشر أو يتأخر عن مناسبته « فيحرق » أى تذهب مناسبته أو ينشر مثله ، ويضيع جهده فى الهباء ، وبالطبع لا يأخذ عليه أجرا • وهو يحذرنى من هذا الوضع •• العمل بالقطعة ، عندما كنت أهم بمزاولته ، قائلا :

ـ اسمع كلامى ياعبد المنعم ، وتحمل واصبر حتى يعين لك مرتب• أنت لاتعرف مقدار ما أعانى عندما يهمل نشر موضوع لى أو يؤخر حتى يحرق » •• ان دمى عندئذ يحترق •• والمصيبة أن واحدا مثل هـــذا الرجل « أبو شنب » يتحكم فينا وهو لايفهم شيئا ويزحم الجريدة بمقالاته التى لا يقرؤها غير جامعى الحروف والمصححين •• أليست الموضـــوعات الحية التى أكتبها أهم من هذا الكلام الفارغ ؟

الحديث بينى وبين زميلى خليل يدور غالبا حول هذا المعنى ، وان كان هو يقارن بين كتابته وكتابة « ابو شنب » التى لافائدة منها ، وبين مرتب «أبو شنب» الكبير وما يحصل عليه هو من القليل الذى يكاد ينعدم فى بعض الشهور • أما أنا فلا تعنينى كثيرا هذه المقارنة ، وأحيانا أسرح منشغلا عن حديث خليل هذا ويتشبث خيالى بشارب « أبو شنب » •• !

* * *

هل أنا غبى •• ؟

اذا لم أكن غبيا فلماذا لم أفكر فى شىء مهم استرعى نظرى اليه خليل؟ لماذا لم أسأل نفسى قبل ذلك : كيف وصل « أبو شنب » الى مركزه هـــذا وكيف صار كاتبا من كتاب الجريدة الكبار وهو غير أهل لان يكون حتى من صغار الكتاب ؟ ولماذا أصرت الجريدة على أن تفسح له فتظهر مقالاته فيها كاعلان مكرر ملح عن سلعة عرف الناس بالتجربة رداءتها ؟ •

قد يكون عدم التفاتى الى هذه النقطة راجعا الى تركيز اهتمامى فى حالتى ، وكذلك تركيز انتباهى ـ ولا تظننى أمزح ـ الى ذلك الشارب ، مما يحول بينى وبين فهم الغموض فى شخصية « أبو شنب » •

وقد أكون غبيا مثل سائر الاغبياء الذين يعتقدون فى انفسهم الذكاء؟! أكبر الظن أن « أبو شنب » يعتقد أنه كاتب عبقرى !

قال لى خليل :

ـ أتعرف حكاية صاحبنا ؟

ـ أية حكاية ؟ .

ـ انها قصة حياته .

ـ لا أعرفها .

ـ كان صاحبنا ـ خليل لايعرف أنى أسميه فى نفسى « أبو شنب » ـ يعمل مثلك الان تحت التمرين ، وطالت مدة تمرينه .. وكان ذلك فى وقت سادت فيه القلاقل السياسية قبل قيام الثورة ، وكان الاستاذ « س » رئيس التحرير له موقف لاترضى عنه جماهير الشعب .

ـ وما هو هذا الموقف ؟ .

ـ لايعنينا الان موقف « س » السياسى ، انما يهمنا موقف صاحبنا .

ـ طيب ، قل .

ـ وفى يوم من الايام مرت مظاهرة شعبية بدار الجريدة ، وهتف المتظاهرون بسقوط « س » وقذفوا الشبابيك بالطوب ، ثم اقتحموا الدار وهجموا على مكتب « س » وحاول بعض المحررين والعمال أن يدافعوا عنه وكان فى جملتهم « صاحبنا » الذى اندفع الى داخل حجرة المكتب يسبق المهاجمين الذين يريدون الاعتداء على « س » ورمى نفسه فوقه ، وانهال الضرب عليه بالايدى والارجل والعصى . وحضر رجال الشرطة ، وانجلت المعركة عن اصابة صاحبنا برضوض وجروح فى عدة أجزاء من جسمه ، ونقل الى المستشفى حيث قضى نحو شهر تحت العلاج ، حتى شـفى وخرج .

قلت مكملا :

ـ وطبعا من يومها صار محررا وكاتبا ملحوظا فى الجريدة مقربا من رئيس التحرير .

ـ مضبوط ..

ولكننا ـ أنا وخليل ـ اختلفنا فى الحكم على هذا الموقف ، فهـــو يرى أنه تملق •• وأن صاحبنا كالنبات الذى لاساق له وأنه التف حـــول الاستاذ « س » صاعدا •• تماما مثل فروع اللبلاب •

ولكننى لم أوافقه على ذلك ، وقلت : هل يمكن أن يخاطر بنفســه هكذا دون أن يكون مخلصا ؟ انها على أى حال تضحية يستحق من أجلها التقدير ، حقا ان الاستاذ « س » كان ينبغى ان يكافئه بطريقة أخرى غير وضعه فى الموضع غير الملائم ، كما يرى خليل ، ولكن ماذا يحدث •• ؟

أليس فى الجريدة مواد كثيرة لافائدة فيها ؟ فلتكن كتابة « أبو شنب» من جملتها ••ألم يكن من المحتمل أن يموت من الضرب ؟ •

وقلت فى نفسى : « أبو شنب » رجل شهم •• ولكن لمـــــاذا يتدلى شاربه الى أسفل •• أليس الاجدر به أن يبـــرمه الى أعلى كأى شـــهم آخر •• ؟ »

هكذا تدور خواطرى نحوه دائما حول شاربه •• لاأدرى لماذا •• قد تكون خواطر صبيانية • ويظهر أنى لم أتخلص من نوازع الطفـــولة بعد ، على أنى كثيرا ما ألمح هذه النوازع فى كبار السن •

وخطر لى كذلك أنه رجل جد •• أبى أن يجارى الاستاذ « س » ـ وهو كاتب لامع فى الجريدة ـ فى الدعاية لصديقته •• •• صديقة « ص » المطربة الناشئة التى تتردد على مكتبه ولابد أنه يقابلها فى الخارج •

« أبو شنب » يشرف على باب الاجتماعيات ، ونشر فيـــه مرة اجابة لرغبة « ص » أن المطربة فلانة احتفلت بعيد ميلادها ، ومرة أخرى شيئا آخر ، وفى المرة الثالثة كان المراد نشره أنه قد عضها كلب ••

وهنا وقف « أبو شنب » وقفة الرجل الجد •• آه لو يرتفع شاربه الى أعلى •• قال لى ساخرا من « ص » ساخطا عليه ، وطبعا لم يكن موجودا معنا :

ـ يا أخى انظر هذه التفاهة ! قال عضها كلب قال !

ثم تابع كلامه وهو يتعمد أن يتظرف ويظهر خبرته بالفن الصحفى !

ـ لو كانت هى التى عضت الكلب كان يكون خبرا طريفا ..

وأعرب عن رأيه فى « ص » بصراحة فقال انه لا يفهم فى الصحافة وليس عنده أخلاق ويريد أن يستغل الجريدة فى توثيق علاقاته الغرامية ، وأن كتابته تهريج ، ولا يدرى لماذا يحظى بهذه المكانة فى الجريدة .. وختم كلامه متنهدا :

ـ ايـ ... ه .. أرزاق !

* * *

وأعلن فجأة أن الاستاذ « ص » عين رئيس تحرير .. زيد به عدد رؤساء التحرير الى خمسة ، وقيل ان الاستاذ « س » أصبح فى شيخوخة لاتحتمل العمل الكثير .

وقصدت فيمن قصدوا الى مكتب « ص » للتهنئـــة ، وقد أعدت له حجرة لائقة أثثت أثاثا أنيقا ، وهناك رأيت « أبو شنب » يوجـــه الكلام الى رئيس التحرير الجديد بعناية ، ويتصنع المرح ، ورأيت القـــوس الايمن الذى يصنعه طرف شاربه .. يرتفع ، وينفرج هذا الجانب من فمه عن ناب أصفر طويل ، بقصد الابتسام .. وسمعته يؤكد ضرورة وجود جهاز تكييف فى الحجرة .. حجرة « ص » .

وفى اليوم التالى قرأت بين الاخبار الاجتماعية أن المطربة فلانة .. عضها كلب ..


الكلب واللصوص

الكلب واللصوص

«ركس» يشم فى الجو هذه الليلة رائحة غير عادية •• رائحة تفسد نسيم الحقول المحيطة وأريج زهر البرتقال الآتى من بعيد ، فى هذا المكان المنعزل فى طرف من أطراف ضاحية المعادى ، الذى أقام فيه صاحبه «سيد عبد العال» كوخه أو مشروع منزله الصغير •• لم تكن رائحة جثة قطة أو زميل من الكلاب كما يحدث أحيانا فى هذه البقعة النائية ، وقد تعود « ركس » شم مثل هذه الرائحة التى تثير فيه حزنا هادئا يظل فترة ثم يمضى كما تمضى الحوادث اليومية العادية بما فيها من أذى أو متعة •

وليس كل مايؤذى ركس أو يمتعه أشياء مادية ، كضربة حجر من ولد شقى أو عابر سبيل أحمق ، أو كأكلة لحم « شغت » مما يحضره له صاحبه من الجزار أو معالجة عظمة مما يرمى اليه بعد الاكل •

كانت الرائحة التى تزعج «ركس» فى هذه الليلة هى رائحة الخيانة التى تدبر جريمة •• ان شيئا ماديا ، مما يتصل بهذه الجريمة ، ومما يدخل فى ادراك الآدميين ، لم يبد بعد •• ولكن « ركس » له ادراكه الخاص !•

لقد كان « ابراهيم الجندى » هنا فى اول هذا المساء مع سيد عبدالعال صاحب « ركس » ابراهيم فصل من الشركة منذ مدة لتكرار اهماله وسرقة أشياء مما فى حيازته ، وسيد تسلم اليوم نصيبه من أرباح الشركة •

« أنا لاأستريح لمنظر ابراهيم •• ولا لرائحته •• فأنا كما تعلم كلب ، وأميز الروائح جيدا •• أعرف الخبيث من الطيب •• وابراهيم يتظاهر بصداقة سيد • وسيد مسكين ينخدع بما يبديه ، ولكن – أنا الكلب – لا أنخدع به ، باختصار •• رائحته لاتعجبنى •• »

عندما فصل ابراهيم من الشركة كان سيد ممن ساعدوه ببعض

النقود ، وساعده كذلك أصدقاء سيد من العمال : حسن البنـــان وأحمد هريدى ومصطفى حميدة ، برغم أنهم جميعا لا يحبـــونه أو هم يرونه جديرا لا بالحب ولا بالعداء ، والمسألة كما قال أحدهم : مساعدة كـده لله ! .

« لماذا يا ترى حاول ابراهيم الجندى أن يلاطفنى الليلة عـلى غير عادته ؟ .. كان ثقيلا فى هذه الملاطفة .. انى أحس أن وقع يده على ظهرى يختلف عن يد حسن البنان مثلا .. يد حسن تشبه يد صاحبى .. يا ترى أين أنت الآن يا أبو على .. والصديقان الآخران أحمـــد ومصطفى ؟ ليتهم يأتون الليلة ليسمروا مع صاحبى ويشربوا الشاى معا .

★ ★ ★

لم ينس « ركس » فاجعة الحريق التى ذهبت منذ شهور بكل ما يملك صاحبه سيد عبد العال ، لقد ظل ينبح ويعوى .. والنار تشتعل .. حتى أتت على ملابس سيد وزوجته وفراشهما ، وهى كل ما يملكان .

« كل ما استطعت أن أفعله هو ايقاظهمـــا بنباحى وصراخى حتى تمكنا من أن يفرا بجلدهما » ..

لم يكن على جلد سيد الا جلباب ، أما زوجته فكانت بقميص تلبسه فى النوم وفى غير النوم ، وخرجا على صراخ ركس ، كانت ليلة من ليالى الشتاء ، جمعا فيها على عادتهما فى الليالى الباردة بعض الحطب والاخشاب وأشعلاها كى يستدفئا ويستعينا بنارها المتبقية على احتمال البرد فى الحجرة التى سقفت بجريد النخل ولم يركب لنافذتها باب .. وان كان سيد قد استطاع أن يجمع بعض الالواح الخشبية والمفصلات القديمة ويكون منها بابا للحجرة بمساعدة حسن البنان الذى له بعض الدراية باعمال النجارة ، أما بقية قطعة الارض الصغيرة التى استطاع سيد أن يشتريها بالتقسيط من الشركة مع التخفيض الذى يمنح لمثله من عمالها ، ودفع المبلغ الاول من ثمنها جنيها من هنا وجنيها من هناك ، أما هذه البقية من مساحة الارض فقد زرع فيها بعض الخضر وخصص جانبا لمشتل اشجار وأزهار يجعلها تحت الطلب .. طلب زبائنه من متوسطى الحال فى أطراف الضـــاحية

الذين يرعى لهم حدائق منازلهم الصغيرة مقابل أجور زهيدة تضاف اليها أثمان « الشتلات » التى يبيعها لهم من مشتله الصغير .

و « ركس » الحارس الصديق لم يعرف له حيلة ليلة الحريق ، غير أن ينبح ويعوى ويدق برجليه الباب المشتعل فتلسعه النار ولكنه لا يعبأ بها ، ويعاود الدق والعواء وهو يرى النار من ثقــوب الباب تلتهم ما فى الحجرة حتى تكاد تأتى على الزوجين ، ولم يهدأ قليلا الا بعد أن صحوا وقفزا الى الخارج .

« أقعيت أبكى وأنا أشاهد صاحبى وزوجته حائرين مذعـورين لا يدريان ماذا يفعلان .. ولم يكن هنـــاك غير جردل فى المشـــتل خطفه « سيد » وراح يغرف به من ماء الترعة القريبة ويقذفه على الحريق ، وجاء بعض الناس من المنازل البعيدة فليس بجوارنا منازل ، وجعـل كل منهم يبذل ما فى وسعه ، وجاء حسن وأحمد ومصطفى زملاء سيد ، وخلـــع مصطفى معطفا قديما يرتديه وألقى به الى الزوجة التى أصابت النار أجزاء من قميص نومها ، ليتنى أستطيع أن أحتضنك وأقبلك يا أبو درش .. ولمحنى حسن ، ولعله الوحيد الذى التفت الى وفهمنى .. فهم انى عاجز عن أن أصنع شيئا فى هذا الموقف ، وأدرك مدى حزنى وبؤسى وأنا واقف يائس ألهث .. وكانت النيران قد انطفأت تماما عندما التصقت بحسن ، وسيد يحكى له كيف أنقذهما نباحى ، وحسن يمسح بيده على ظهرى شاكرا مواسيا .. أما الليلة فالموقف موقفى والميدان ميدانى .. ولن يصل أحد الى المبلغ الكبير الذى كان نصيب سيد من أرباح الشركة ، والذى أعرف مكانه ، الا على جثتى .. ! » .

كانت المشكلة الكبرى التى أعقبت حادث الحريق هى كيف يذهب سيد الى الشركة ليؤدى عمله بدون « البدلة الكاكى » التى تصرفهـــا الشركة لعمالها وتوجب عليهم أن يؤدوا أعمالهم بها ، وتعتبرها « عهدة » لديهم .. دبر حسن وأحمد ومصطفى حل هذه المشكلة باحضـار بدلة مماثلة ، ومشى سيد بينهم الى مقر عملهم كأنهم أربعة أشـــقاء ذاهبين الى المدرسة ..

« ومشيت أنا وراءهم مسافة أهز ذيلى ، كنت وقتئذ أتمنى أن يكون لى مكان بينهم فى العمل بالشركة .. ولكن لا بأس ، فسيد لبس البدلة الجديدة وذهب مع زملائه .. أنا وسـيد واحد . ونادانى سيد قائلا : ركس .. وأشار لى الى طريق العودة ، فأدخلت ذيلى بين رجلى طائعا ، وعدت ، وكانت الشمس تشرق على آثار الضباب التى خلفها الحريق ».

واستمرت الشمس تشرق وتكتسح الضباب ؟ وازداد اشراقهـا فى شهور الربيع ، وكان حديث سـيد وزملائه يزداد أملا واشراقا وهم يتكلمون عن الانظمة الجديدة للعمل وعن آمالهم فى أرباح الشركة .. وكان سيد يحدث نفسه وأحيانا زوجته عن بناء الحجرة الثانية وتركيب الابواب والشبابيك و .. المولود المنتظر .. واسمه اذا كان ذكرا واسمها اذا جاءت بنتا ..

« آه .. تذكرت « فلة » التى تعمل فى المنزل البعيد .. طالما جرينا معا فى ضوء القمر ، وطالما نبحنا معا وعلت أصواتنا فى الظلام .. هـذه الجراء التى وضعتها فلة أخيرا .. يا ترى فيها ما يشبهنى .. ؟ » .

★ ★ ★

.. وها نحن أولاء فى أوائل الصيف ، ولا تزال رياح الخماسين تعاود الربيع وتفسد صفاءه فى بعض الايام ..

وهذا هو « ركس » فى هذه الليلة يشـم رائحة غبار يوشك أن يهب .. غبار جريمة .. يريد أن يعكر صفاء الجو السعيد الذى يعيش فيه العمال هذه الايام ، وقد تسلموا أنصبتهم من الارباح .

و « فقعت » رائحة الجريمة فى خياشيم « ركس » فانتصبت أذناه وحدق فى الظلام .. واستطاع أن يميز أشباحا تقترب ، وعاد بنظراته يوجهها نحو المشجب والجاكتة الكاكى المعلقة به والتى يحتوى جيبها على المبلغ .. باب الحجرة من خشب غير متلاصق ، بين كل خشبة وأخرى فضاء ، وهو يغلق بمشبك حديدى يرفع اذا أريد الفتح ويخفض عنـد الاغلاق ..

« سيد متهاون .. كيف يترك الامور هكذا .. ؟ ولكن لا بأس ، فانا هنا ! وهو على كل حال رجل طيب (مش واخد خوانة) .. » .

.. ونبح « ركس » ، واقترب منه أحد الاشباح فى بطء ، وهو يبذل جهدا كبيرا فى ان يبدو امامه هادئا عاديا .. وتبين « ركس » نيه ابراهيم .. وشم منه أنه يحاول أن يستغل « المعرفة » وتردده على المنزل فى أن يبدو أنه جاء كما يجىء فى كل مرة ..

دنا ابراهيم من ركس يحاول ملاطفته ، وسكت ركس عن النباح.

« يمكن يكون ابراهيم حضر يريد سيد فى مسألة عادية ويظنه غير نائم » ..

ولكن الريبة عاودته اذ أدرك اضطراب ابراهيم الذى يحاول أن يتغلب عليه ، واذ رآه يسدد نظرته نحو المشجب والجاكتة ، وتحولت الريبة الى يقين عندما لمح شبحين آخرين .. وان كانا لا يزالان بعيدين يرقبان .. فرفع صوته بنباح أحست الكلاب الاخرى القريبة والبعيدة أنه نباح خطر .. فتجاوبت معه بمثله وهى تتحرك هنا وهناك ، على خلاف ما تكون عندما تتجاوب أصواتها وهى آمنة مقعية ، كأن هذا النباح الهادىء سعال الخفراء والجنود بالليل .. أما فى هذه المرة فكان النباح يشبه صفارات حراس الامن للاستنجاد والاستعانة على ضبط الجناة ..

وحاول ابراهيم أن يكسب اللحظة الخاطفة ، ففتح الباب وقصد نحو الجاكتة المعلقة ، ولكن « ركس » لم يمهله ، فهجم عليه بعضة نافذة فى ساقه ، وفى هذه اللحظة انطلقت رصاصة مسددة الى قلب « ركس ».

واستيقظ سيد وزوجته ، صرخت الزوجة مذعورة .. وتجمع ناس لا تدرى من أين جاءوا فى هذه البقعة المنعزلة ..

وفر الشبحان اللذان أطلق أحدهما الرصاص ، أما ابراهيم فقد وقف مشلول التفكير جامد الحركة ..

« الحمد لله .. لقد أديت مهمتى .. النقود فى جيب الجاكتة لم

يمسسها أحد •• انني أحس بالالم ، انه ألم قاتل •• انها النهاية •• ولكنى مستريح •• ليت هؤلاء الآدميين يفهمون عنى ! اذن كنت أوصى سيد باحضار جرو من أولاد « فلة » يربيه ليحل محلى •• هـذه فقط هى التى أريد أن أقولها ، ولكن من يسمع ومن يفهم !

« أما ابراهيم الجندى فقد انكشف ولم يعد سيد فى حاجة الى التحذير منه ••

« آه •• هذا حسن البنان ، لا أراه ، لم أعد أرى شيئا ، الاشياء تغيم أمام بصرى ، ولكنى أسمع صوته ، وأكاد أتبين وجـــود آخرين أعرفهم •• أحمد هريدى ومصطفى حميدة •• وذلك الرجل الطيب « الحاج حسين » صاحب أقرب منزل ، الذى تعمل عنده فلة •• وداعا يا فلة ! » •

كان صوت « ركس » يخرج نباحا واهنـــا متقطعا كالانين ، وفى لحظته الاخيرة أطلق الصرخة الاخيرة •• وكانت عينا سيد تدمعان وقد تركزت مشاعره عند « ركس » ، وما أن ســـكت الكلب حتى انخرط سيد فى البكاء بصوت مسموع ••

واختلطت الاصوات واختلفت وجهات نظر المتحدثين ، فمن عاتب على سيد لانه يبكى على كلب ، ومن مواس لسيد : « الحمد لله عـــلى ســـلامتك ربنا جاب العواقب سليمة » ، ومن قائل بأن « ركس » كان كلبا واعيا أصيلا يستحق الحزن عليه ، ولكن الاعمار بيد الله •

وسمع صوت الحاج حسين عاليا :

« الكلب مات شهيد ياولاد ! أدى واجبـــه ، لكن انت يا ابراهيم •• يا خسارة بنى آدم ! » •

وسكت الجميع عندما جاء الشرطى وتفحص المكان على ضـــوء المصباح البترولى ذى الشريط •• وقال فى صوت غليظ قوى وهـــو يشير الى ابراهيم بالبندقية ليتقدمه ••

« ابراهيم الجندى •• ؟ والله وقعت يا ابراهيم •• أصلك عرفت تنفد من حوادثك فى الشركة •• لكن ادى انت وقعت •• » •

وحانت منه التفاتة الى جثة الكلب ، فتابع كلامه وهو يهز رأسه آسفا :

« يا ريت الرصاصة جت فيك انت يا ابراهيم •• » •

نكس ابراهيم رأسه وهو يقول فى نفسه :

« يا ريت !! » •

اختفاء جليلة



اختفــاء جليــلة

اليوم الاول من ابريل عام ١٩٤٨ :

سكنت اليوم هذه الشقة الصغيرة على سطح هذا المنزل ، انه مسكن لا بأس به ، حجرة وطرقة ودورة ميــاه صغيرة ، كل شيء فيها صغير ، وهذا من حسن الحظ ، فليس عندى شيء أملأ به فراغا كبيرا ، فالحجرة مثلا تكفى لسريرى الصغير « والترابيزة » التى أســتعملها كمكتب ، وآكل عليها أحيانا .. والكرسيين ، والدولاب الصغير القديم الذى أضع فيه الكتب بجوار الملابس .

هنا أستطيع أن أتفرغ للدرس والاستعداد لامتحان «البكالوريوس» الباقى عليه أقل من شهرين ، وخاصة فى هذا الســطح المنبسط امام الشقة ، لابد أن يكون فى الصــباح المبكر رائعا .. فى الوقت الذى اعتدت أن أستذكر فيه بنشاط ، والاصيل هنا أيضا جميل ، ولكن زوجة صاحب المنزل كانت هنا اليوم .. كانت تلم بعض الملابس ـ أظنهــا مناديل فقط ـ من على حبل الغســيل .. حيتنى وابتسمت .. أطالت الوقوف ، وتمشت .. كانت تخطر فى مشيتها .. ونظرت من فــوق السور القصير هنا وهناك .. ظهر بطن ركبتها البض وهى تنظــر .. انها حلوة صغيرة .. أصغر بكثير من زوجها « صــالح أفندى » الذى جاوز الشباب ، لقد صعد هو أيضا وهى لا تزال فى السطح ، ورآنى جالسا على كرسى أمام الباب ، فخجلت منه ، أخشى أن يظن انى جالس هكذا لأتطلع الى زوجته ، نعم بيدى كتاب أنظر فيه ، ولكن .. ولكنه أنقذنى من الشعور بالخجل ، سلم عــلى بوجه منبسط وكلمنى برقة وتلطف ، وسألنى هل أحتاج الى شيء ..

غريبة .. لماذا لا يغير على هذه الانثى ؟ لعلى أستغرب لانى فلاح

•• لم أعرف بعد ما عمل هذا الرجل ، لقد رأيته صباح أمس فى المنزل حينما كتبنا عقد الايجار ، واليوم رأيته فى المنزل أيضا بعد الظهر •• وكان لابسا البنطلون والقميص نفسهما ، انه رجل لطيف على أى حال، أقصد سواء كان يعمل أو كان متعطلا •

٧ من ابريل :

حضر اليوم أخى الاكبر من البلد ومعه نقود لى من والدتنا ووصية شفوية منها أن أجتهد ولا أخيب رجاءها فى •• وكفى ما كان من لعب و ••

أراد أخى أن يكون لطيفا معى فلا يذكر شيئا بصراحة عن سلوكى الماضى وخاصة مع « بنات مصر » مما شغلنى عن الدراسة وكان سببا فى رسوبى بكلية التجارة عدة مرات ، ولكن أخى قطع كلامه عندما رأى « جليلة » تدخل علينا وتشير الى لتكلمنى كلمة •• وانتحيت معها ركنا فى السطح لبرهة قصيرة عدت بعدها فقال لى فى مزيج من اللوم والنصح :

ـ يا محمد •• انت مش نوى تجيبها البر •• ابوك وغضب عليك وحلف انه ما يصرف عليك ولا مليم •• وأمك باعت صيغتها عشان تكمل تعليمك ، عشان تديلك آخر فرصة زى ما قلت لها ، ومش معقول انها تديلك فرصة تانية ••

ـ وايه لازمته الكلام ده ؟

ـ يعنى مانتش عارف •• ولا فاكرنى عبيط !

ـ قصدك على صاحبة البيت اللى ندهيتلى ؟ •• دى بتكلمنى عشان النجار اللى حيصلح الباب ، بس اكسفت تكلم قدامك ••

ـ آه •• وهمه بتوع مصر بيكسفو •• ؟

ـ وحياتك يا اخويا ما فيه حاجة ••

ـ ولا فيه •• انت حر •• انت مش صغير •• عـــلى كل حال الامتحان فاضل عليه شهر ، واللى فى الدست تطلعه المغرفة زى مابيقولوا عندنا فى البلد ، انما يكون فى علمك ان دى آخر مرة •• يعنى آخـــر امتحان ••

أخى على حق •• وان كنت قد لمحت عينه تزوغ فيها •• او أنها دخلت وجلست معنا لهدأت ثورته على •• اذ كان يرى المسألة عادية ، ولكن حركتها فى العودة ـ عندما فوجئت به ـ والفرار كالغزال النافر مع اشارتها الى وهى تتأود بقوامها المثير وتقول فى صـوت ناعم : تسمح •• كلمة •• كل هذا خلق جوا غير عادى •

ولكنى أرجع وأقول : أخى على حق ••

١٠ من ابريل :

تعود كل من جليلة وزوجهـــا صـالح أن يأتيا الى فى شقتى •• كانت تصعد الى السطح فتتقابل نظراتنا ، ثم الابتسامات ، ثم الكلمات •• ثم أعرض عليها أن تدخل وتستريح بدلا من الوقوف ، أما صالح فهـو رجل لبق يجيد خلق المناسبات ويحسن الدخول فى الحديث ، ووقتـه طويل يحب ان يقضيه هنا وهناك ، فلم يكن له عمل فى الوقت الحاضر، عرفت من أحاديثه معى أنه كان يعمل فى البوليس السياسى ، عندما كنا نتكلم فى السياسة كان يقص على حكايات وخفايا ـ كما يقول ـ عن رجال الاحزاب وتنكيل البوليس بالمعارضين للحكام ، ويعنى خاصـــة بقصص الفضائح الخلقية وضعف رجال الحكم المستبدين أمام زوجاتهم •

كانت اليوم جالسة معى ، وجاء هو ، فلما رأته أعرضت عنه بغضب أو ازدراء •• لست أدرى بالضبط •• وخرجت • فهمس لى وهو يشير اليها : : « انده لها •• خليها تيجى » •• وأبت أن تعود • زفر زفرة تدل على ألم مكبوت وغير مجرى الحديث بلباقته ••

خطر لى خاطر وأنا أفكر فى موقف صالح من تردد زوجته على •• هذا الرجل البوليسى العريق •• تربية البوليس السياسى منذ صدقى باشا

•• أليس من المحتمل أن يدبر لى أمرا •• ولكن ماذا يريد منى •• ؟ المال •• لا شىء يطمع فيه ، لعله لا يزال يعمل للبوليس السياسى ، ولكن أنا لم أشتغل بالسياسة قط ، فلم انضم الى لجنة من لجان الطلبة المنتمين الى الاحزاب ، حتى المظاهرات •• كنت أفرح للاضراب ، وبمجـــرد الخروج من الكلية أزوغ من المظاهرة ، وأقصد الى مسكنى القديم الذى كان عش غرام •• وهذا هو دائى •• !

وهذا المسكن ••؟ ما لى أنا ولكل هذا ؟ وكيف أتفرغ للامتحان ؟ لا شك أن أخى كان على حق ••

وقد سألنى صالح مرة :

ـ انت وفدى ولا حر دستورى ولا •• ؟

ـ لا هذا ولا ذاك ••

ـ انت عبيط •• وحاتعمل ايه بالشهادة ؟ هو يا ابنى فيه وظايف من غير محسوبية ؟

ـ خليها على الله يا صالح أفندى ••

ـ بقول لك انت عبيط ••

وسكت •• هل أقول له : ان اللائى هربت منهن لأذاكر هنا •• وجدت جليلة •• أهم عندى من الاحزاب ؟ كله ضياع ! ولكن الوظيفة ملجأ من الضياع ، كان أبى يقول لى :

ـ خد الشـــهادة انت ولا لكش دعوة •• نخلى عبـــد المجيد بك (نائب الدائرة) يوظفك ••

سيرضى أبى عنى اذا نجحت ، أما اذا ـ لا قـــدر الله ـ لم أنجح فسيكون مصيرى التعطل والتسكع فى البلد ••

١١ من ابريل :

ملامح وجه جليلة أمرها عجيب •• أحيانا أرى عينيها صـــافيتين والابتسامة على فمها رقيقة ، وأحيانا أخرى أرى سحنتها قـــد انقلبت وصارت الى منظر أشبه بالتوحش •• أظهر ما فيه أن شفتيها لا تصلحان للتقبيل •• وأكثر ما تكون كذلك عندما تصمت وتسرح !

وأعجب العجب منظرها الليلة •• لا يتفق أبدا مع الحالة •• كيف يتفق الوجه الناضر الصافى والمشية المتكسرة فى الثوب الابيض الذى تزيد نصاعته بانعكاس أشعة القمـــر الساطع فوق السطح ، والعطر المتخلف وراءها يدعونى الى فض المعركة ! ••

كنت قد شرعت فى النوم عندما دق الباب :

ـ تعال شوف الراجل ده اللى مش حيخلى الليلة دى تفوت عـــلى خير ••

ـ ايه يا ست جليلة فيه ايه ؟

ـ تعال يا سيدى شوف ••

نزلت أشوف •• لم أفهم شيئا عن السبب الحقيقى لنزاعهما ، فقـد كان كلامهما مختلطا ومبهما •• قال لى صالح فى شبه همس :

ـ أعمل ايه يا محمد أفنـدى •• أنا مش قادر أكلم •• فيه حاجة ماقدرش أقولها ••

ـ حاجة ايه يا صالح أفندى ؟

وأدركت أن سؤالى لا معنى له لأنى أطلب منه أن يفصح عن سر يريد كتمانه ، فأردفت :

ـ معلهش الصبر طيب ••

ـ أصبر •• ؟ دنا صابر أكتر من أيوب •• ومبتلى أكتر منه •• مبتلى فى زوجتى وماقدرش أكلم !

قال هذا وهو يرمى عقب السيجارة الصغير جدا أمامه على البــلاط ويدوسه لينطفىء ، نحن فى صالة واسعة ليس على أرضها أى فرش وكل مابها بضعة كراسى خيزران قديمة وكنبة « بلدى » عليها مرتبة غير نظيفة ليس عليها غطاء .. ينام فوقها طفلان فى جلبابين يشبهان المرتبــة فى اللون والوساخة ..

وكان منظر الشقة مما شغلنى عن كلامهما وفهم سبب المعــركة ان كان يمكن أن يفهم .. فالشقة أربع غرف كبيرة غير الصالة ، تكاد تكون خالية من الأثاث .. ليس فيها رائحة بيت .. ظننت أنهما نقلا الأثاث الى مسكن آخر وأنهما على وشك أن يوقظا الطفلين ويأخذاهما الى المســكن الجديد .. ولكن الرجل الثالث الذى كان معنا والذى يسكن الشـــقة الملاصقة قال لهما وهو يغالب النعاس :

– قوموا بقى ناموا واخزوا الشيطان ..

١٢ من ابريل :

استيقظت اليوم متأخرا على غير عادتى من أثر الســهر فى الليلة الماضية ، ولم أجد وقتا فى الصباح للاستذكار اذ كان وقت المحاضرة فى الكلية قد أزف .

أريد أن أنهى حياة التلمذة وأحصل على بكالوريوس التجــارة ، وليكن بعد ذلك ما يكون ولست ادرى ماذا تريد جليلة وزوجها .. منى على الاقل ! هل أنا فاضى حتى أعمل لهما قاضيا بالليل وبالنهار.. ؟ ولماذا لم يكتفيا أمس بجارهما زوج المرأة التى تنظر الينا أنا وجليلة شذرا وهى تتظاهر بالانهماك فى نشر الغسيل على السطح عندما ترانا نتحادث معا .

لا بأس .. انها فترات قصيرة لا تخلو من متعة .. حديث رقيق.. غزل أحيانا .. مداعبة أخرى .. ولكن المزعج أن ذكرى هذه اللحظات وما تثيره من خواطر تهجم على فى أثناء الاستذكار .

عصر اليوم جلست أستذكر ، واذا فكرى يسرح فى منظر الشــقة الخالية .. الخاليـــة من الاثاث ومن روح البيت .. ومنظــر الطفلين

المتكومين على طرفى الكنبة..رأيتهما مرارا على السلم يأكلان سندوتشات الطعمية والفول .. كما رأيت صبى المطعم القريب يدخل الشقة الخالية مرارا حاملا بين يديه صينية مغطاة .

وجاءت جليلة :

ـ شفت امبارح ؟ ..

ـ شفت .. تقصدى ايه ؟ ..

ـ الراجل ده وعمايله .. والشقة .. الشقة اللى ماخلاش فيها حاجة ! حتى الحلل باعها !

حتى الحلل .. ان هذه المرأة لا تطبخ .. انها تستعمل الاكل الجاهز من السوق .. سندوتشات الطفلين وصينية المطعم .. هى غذاؤهم .. ليست جليلة ربة بيت ، وليست أما ، وأغلب الظن أنها ليست زوجة .. انها متعطلة .. كزوجها تماما .. وأنا ان لم أحصل على البكالوريوس فسأكون مثلهما .. متعطلا ..

ولاحظت شرودى ..

ـ مش مصدقنى .. طب دا مرة لعب على عفش البيت وخسر .. وجت العربيات شالته ..

ـ ياه .. وقلت لو ايه ؟

ـ قلت لو .. مش ناقص الا انك تلعب على أنا .. وارتاح منك !

ـ اجوزتيه ليه ؟

ـ ربنا يجازيها عمتى .. هى اللى جوزتنى له وأنا كنت صغيرة ماعرفش حاجة . وكان وقتها بيشتغل فى المباحث ، وكان واكل بعقلها حلاوة . ولما ماتت ورثت منها البيت ده وأرض مؤجرينها الفلاحين .

١٥ من ابريل :

برغم ما حكته لى جليلة عن زوجها وأنه يلعب القمار ويبدد كل شىء فيه ، وبرغم انى لم أجد فى كلامها ما يناقض المعقول ، فلم أنس ما همس لى به فى تلك الليلة من أنه مبتلى فى زوجته بما لا يستطيع أن يفصح عنه ، فماذا عسى أن يكون هذا الابتلاء ؟ هل هو علاقتها برجل ؟ يبدو لى أن صالحا ليس غيورا ، لأنه يرى زوجته تتردد على ، وأحيانا يكون معنا ثم يتركنا وحيدين .. وعندئذ يداخلنى الوسواس من جهة رجل المباحث القديم ، ثم لا يلبث هذا الوسواس أن يذهب عندما أفكر فلا أجد هدفا له من تدبير شىء لى ، ولكن ما هدفه من تشجيعى أو تشجيع زوجته على التقائنا ؟

كان ذلك يحيرنى حتى مساء اليوم..حين عدت من الخارج وأردت أن أفتح الباب ، فتعذر على المفتاح أن يدور فى القفل ، فأسرعت الى نجار قريب ليفتح لى الباب .

ـ ودا قفل دا .. ؟ بدل ما الست هانم تدى للواد « اسمعين » وتبع فى حاجتها وتديلو .. تجيب لحضرتك قفل زى الناس !

قال ذلك النجار وهو يعالج الباب ليفتحه ، فأدركت أن عنده كلاما .. وقدمت له سيجارة وأشعلتها له وأنا أسأله عن « اسمعين » من يكون ؟

حكى لى حكاية مجملها أن شابا من الجيران اسمه « كمال » كان يغازل جليلة ويضايقها فى الشارع اذا خرجت ، فقالت لزوجها ، ونشبت معركة كلامية ثم اشتباك بالايدى بين الزوج والشاب ، وصالح الآن ليس كما كان فى الماضى قويا مرهوبا ، فقد تقدم فى السن « ومابقاش فيه للخناق » وكمال ابن المنشاوى صاحب المقلة .. له أقارب وأنصار .

لذلك لجأ الى اسمعين البلطجى والفتوة ،وبمجرد أن تسلم اسمعين من صالح أول دفعة من النقود ، وراح يتردد على منزل صالح ، وعرف انه دخل فى المعركة ، وقفت المناوشات من الجانب الآخر ، وساد السلام ..

ولكن المعركة التى لم يخمد أوارها قد بدأت .. ولا يجد صالح من يستعين به فيها لأن الخصم هو اسمعين نفسه !

ـ اسمعين شبك ـ لا مؤاخذة ـ مع صاحبتنا .. وبعد ما كان الدفع من صالح بقى منها هى ..

وأشعلت للنجار السيجارة الثانية وأنا أعرب له عن دهشتى :

ـ أما عجيبة يا معلم .. يعنى حاميها حراميها ..

ـ مظبوط .. والواد اسمعين على فكرة عارف انها لقمة طرية .. عاوز يطلقها منه ويجوزها عشان الملك اللى عندها ، آهو راخر عواطلى .

ـ لكن قل لى يا معلم ، هو صالح بيلعب قمار صحيح ؟

ـ دا راجل غلبان وعاوز يعيش بأيها طريقـــة ، وتلاقيه دلوقتى بيتندم على خناقه مع كمال .. كان أحسن من البلطجى .. على الاقــل ماكانش حياخد فلوسها ويخليها تبيـــع عفش البيت حتة حتة .. لكن يا خسارة ماجاش على المزاج .

١٦ من ابريل :

أردت اليوم أن أقضى فترة الصباح المبكـر فى الاستذكار كالعادة ، ولكنى ذهنى شرد .. كلما نظرت فى صفحة الكتاب تراءت الى صور .. جليلة وهى مقلوبة السحنة ، صالح وهو يشكو ابتلاءه كأيوب ، الطفلان .. مرة نائمين على الكنبة وأخـــرى يلعبان على الســـلم فى جلبابيهما الوسخين ، الشقة العارية الخالية من روح البيت .. وصور أخرى خيالية لكمال واسمعين ، فلم أرهما ، ووقفت وخاصة أمام صور خيـالية لجليلة واسمعين معا .. هل أغار ؟ لا أدرى ..

وبرغم تضايقى من الانشغال عن الاستذكار ومن الجو بصفة عامة ، الا أننى استرحت من سؤال كان يحيرنى .. الى أى شىء يهدف صـالح بتشجيع علاقتى أو صداقتى لزوجته .. هــل يريد أن يشغلها بى عن البلطجى ؟

كل من فى البر يطلب صيدا •• وأنا أصبحت صيدا عسيرا ، على الأقل لأن الطعم أصبح فاسدا فى نظرى •• ولأول مرة فى حياتى أشعر بالتقزز من النساء ! وخطر لى خاطر أراد الشيطان أن يوحى الى بأنه انسانى •• قال لى : الطفلان •• والرجل « الغلبان » •• اشغلها من أجلهم •• استبعدت هذا الخاطر واستعذت من الشيطان ••

وعصر اليوم جاءت جليلة ، وتغلبت على مشاعرى الجديدة واستقبلتها كالعادة مدفوعا بحب الاستطلاع •• لماذا لا أجاريها وأنا حذر؟ كانت على أتم زينتها وأناقتها •• هى دائما تعتنى بذلك ، يخيل الى أنها لا يمكن أن تبيع المرآة وأدوات الزينة •• ناضرة الوجه صافية النظرات ، ولكن تبدو لى فى لحظات خاطفة مقلوبة السحنة متوحشة الملامح ••كما كانت تلك الصور تبدو لى فى صفحة الكتاب ••

ووجهت الحديث من بعيد الى بعض النواحى التى كشفها لى النجار أمس ، زعمت لها انى أرى شابا ينظر كثيرا ناحية شقتهم من شرفة قريبة •• عرفت موقعها من حديث النجار •• ولكنى أخفى قصدى جعلت كلامى بلهجة الغيران •• قالت مستهينة وبساطة :

ـ قصدك كمال المنشاوى •• دا عيل !

ـ عيل ازاى دا بشنب •• وايه اللى يخليه يبص أوى كده ؟

ـ لكن أنا مش بشوفو يبص دلوقتى ••

ـ كان بيبص امتى ؟

ـ هو فى الحقيقة كان بيعاكسنى فى الشارع •• يخلينى أخرج ويمشى وراى لغاية ما نبعد ، فيقرب منى ويقوللى : تسمحى كلمة •• كلمة واحدة •• كلمة واحدة بس •• بس ما تتنرفزيش •• مفيش داعى للنرفزة •• ويفضل يعيد فى الكلمتين دول وأنا ماشية ساكتة ولا كأنى سامعة حاجة •

ـ لكن انت كنت بتتنرفزى ؟

ـ أبدا ، دا هو اللى كان يبقى بيتنفض وكلامه يرتعش !

وقطع علينا الحديث دخول طالب زميل لى،واستأذنت هى وخرجت ونظر الى الزميل نظرة ذات معنى وقال :

ـ أيوه يا عم •• حلال عليك ! رزقك فى رجلك مطرح ماتمشى ! يا ريتنى كنت من الارياف وساكن لوحدى !

ـ والله •• المسألة مش زى ما انت فاهم •• دى مأساة !

ـ مأساة •• ؟ تكونش قريت الفضيلة ولا العبرات بتاع المنفلوطى •• مأساة ايه يا أستاذ منفلوطى ؟

وحكيت له الحكاية ، فأصغى الى حتى انتهيت منهـا ، وخلت انه باستغراقه فى الاصغاء قد شاركنى مشاعرى ، ولكنه قال لى :

ـ وانت مالك ؟

ـ افرض انك مكانى تعمل ايه ؟

ـ ودى عايزة سؤال ياسى منفلوطى ••

وكانت جليلة قالت لى ـ قبل أن نأتى بسيرة كمال المنشاوى ـ انها ستختفى •• من وجه هذا الرجل « زوجها » لتستريح منه ، ولن يعرف أحد مكانها ••

تابع الطالب الزميل حديثه :

ـ كنت يا أخى أخليها تقعد •• تقعد مع جوزها وأولادها ولا تهرب مع حبيبها •• مش تبقى انسانية •• ولا ايه يا •• منفلوطى •• !

ـ انت حيوان ••

١٧ من ابريل :

استيقظت مبكرا كعادتى •• وما هممت بفتـح الكتاب حتى رأيت صالح مقبلا فى فزع •• وسألنى بصوت ملهوف عن جليلة وهل أعـرف

أين ذهبت ، فقد قام من النوم ولم يجدها ، وفتش عنها فى كل مكان يظنها فيه دون جدوى ، وتجنبا لاى شىء يضيع وقتى لم أذكر له ما قالته لى أمس من انها ستختفى .. تركنى ونزل مسرعا .

نفذت خطتها ، لابد انها هربت مع اسمعين البلطجى ، مسكين صالح .. لم اره فى مثل هده الحال ، والطفلان .. وقفزت الى ذهنى صورهما مع الاولاد الذين يجوبون الشوارع ويجمعون أعقاب السجاير ..

طردت هذه الخواطر وأمسكت الكتاب ، ولكن هذا الديك الذى يصيح بصوت مشدوخ فى عشة بالسطح يزعجنى .. هل كان يصيح فى الايام الماضية ولا اشعر به ؟ قد يكون كبر وبلغ اليوم فقط سن الصياح .. انه لا يسكت الا ليعود .. وتمشيت نحو العشة .. هل أخنق هذا الديك ؟ بحثت عن عصا اضربه بها .. ورأيت فى العشة ديكين مشتبكين فى معركة بينهما ، والدجاجات واقفات فى هدوء ، وعلام يتعارك الديكان ان لم يكن من اجل الدجاجات التى تتظاهر بالبراءة ..

وعصر اليوم شعرت بالضيق ، هل أنا متضايق لاختفاء جليلة وانتهاء « العصارى » التى كنا نتقابل فيها .. ؟ لا أدرى .. اننى لا أدرى شيئا .. الامتحان قرب ، ومستقبلى مهدد ، ماذا أفعل ان لم أنجح ؟ لا يبقى لى عندئذ الا أن أدخل طرفا فى النزاع على جليلة ..

لابد أن أتخلص من هذا الجو ، سأبحث عن مسكن آخر .

١٩ من ابريل :

جاءنى اليوم صالح وأطلعنى على جريدة بيده وأشار لى الى عنوان كبير :

« زوجة وجيه تهرب منه ثم تضبط مع عشيقها » ..

وجلس على الكرسى واضعا رجلا على رجل كأى وجيه .. مطمئن الملامح ثابت القبض بيده على السيجارة .. لم يخدعنى هذا المظهر عن ألم مكبوت يظهر فى ظلال وجهه ، ويجاهد فى التغلب عليه واخفائه ، كما أخفى كلمة « عاطل » بصفة « وجيه » ..

تم الكتاب



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢

٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٣	التكس له زمان جاى	التكس زمانه جاى
٦٠	٦	الذى	الذين
٨٧	١٣	صغيرة	صغير

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد . روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٣٥ الثمن ١٥ قرش